توما الخوري

جلجامش

بطل ما بين النهرين

الأبطال

توما الخوري

جلجامش

بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

Naufal Grou

3000000031



توما الخوري

جلجامش

بطل ما بين النهرين

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « زكريا كايا »

الطبعة السادسة، بيروت – لبنان، حزيران (يونيو) ٢٠٠٥

« أورخوي »

لَكأنّها ، في السهل السندسيّ الرحيب الذي يحتضنها، بقعةٌ سوداء على ملاءة خضراء . هذا إذا نظرتَ إليها من بعيد ... غير أنّك ، كلّما دَنوتَ منها ، بانَتْ بيوتُها الصغيرة المروّسة القباب ، بجاراتها الفخـــاريّة المبنيّة بالصلصال والقير ، أشبَهَ بخلايا النحل ، أو بمخيّمٍ لجيش على أهبة التحرّك والرحيل، لولا السور العظيم الارتفاع ، الكابي اللون ، الذي يربض حولهـــا بثقله فوق المرتفع الرمليّ ، سادّاً أمامها كلّ منفـــذ ، مجمّداً كلّ حركة ، وحائلاً دونها وفيضانات «الفرات» العظيم بجوارها .

تلك هي «أورخوي»، أو «ارك»، المدينة السومريّة، عاصمة الملك « انمركار » .

★

نحن في زمن موغِل في القِــدَم ، يتقهقر إلى أوائل الألف الرابع قبل الميلاد ... ألوقت قُبَيل الغروب ... والملك « انمركار » يروح ويجيء في غرفته ، قلقاً بسبب حلم رآه ، ينتظر العرّاف ليفسّره له ... ويتباطأ هـــذا بالمجيء حتى يكاد الملك يخرج عن طوره ويهرع إليـه بنفسه ... ثم يَقرع مسامعَـه وقعُ أقدامٍ متباطئة، ثقيلة، في رواق القصر ، يواكبـه نقرُ عصا على الأرض ... ويدخل العرّاف ، فيبادره الملك بتذمّر :

ـ تأخرت أيّها العرّاف حتى أساتُ بك الظنّ .

ـ مولاي ، إنّه داء النّقْرِس يُثقل قدميّ ، ولولاه أوفيتُك بسرعة الطير .

وبعد أن استمرّ الملك « انمركار » في صمت طويل لم خلاله شتاتَ حلمه ، قال :

ـ ليلةَ البارحة ، بعد منتصفها بقليل ، رأيت حلماً أزعجني كثيراً ... رأيتُني وابنتي « ننسون » نتنزّه على شاطىء « الفرات » . كانت مياهه تهدر هائجة ، مزبدة ، مثل حيوان شرس يريد افتراسنا ... فالتفتُّ

بجزع إلى ابنتي التي كانت تسير إلى جنبي ، فإذا هي مفقودة . فاستدرتُ إلى النهر فإذا « ننسون » تتخبّط يائسة في موجه ، وتغيب عن نظري ... وغصتُ في الماء بكامل ثيابي أبحث عنها في الأعماق المظلمة ... ورأيتها في القاع الموحل مستلقية على ظهرها كالنائمة ، منتفخة البطن، شاحبة ، وفي عينيها دموعٌ لا تزيد ولا تنقص . وضرعت إلى الإله « انليل » فوهبني القوّة ، فأخرجتها إلى الشاطىء . وبينا أنا أرفعها من خصرها ، وأدلق رأسها إلى أسفل ، تدفّق الماء من فمها كالشلاّل ، وخرجت معه سمكةٌ ذهبيّة رائعة الجمال ، فكبرت ، وكبرت ، ثم عبّت النهر الذي خرجت منه ، وعبّتني معه... واستيقظتُ من نومي وأنا أسبح في عَرَقٍ غزير . هذا هو حلمي أيّها العرّاف .

فقال العرّاف ، وقد انقلبت سحنَتُه وبان الخوفُ على وجهه :

ـ حلمك مولاي مخيف حقّــاً ، وإنّي لأخشى عواقبه . فالسمكـةُ التي رأيتَ تخرج من فم ابنتك ، هي ابنٌ لها سيولَد في الغد القريب ...

— ولكنّ ابنتي عاقر أيّها العرّاف ! منذ عشر سنين هي متزوّجة ولم ترزَق طفلاً !

— سترزَقه ، وسوف ينمو هذا الولد بالقامة ، والقوّة ، والحكمة ، والجمال ، ويفوق بقدرته جميعَ الملوك الذين أتوا قبله . ويفوقك أنت أيضاً أيّها الملك « انمركار » . فنهر « الفرات » الذي رأيتَ السمكة تَعبه هو شعب «أورخوي». سيُذلّ ابنُ « ننسون » هذا الشعب ويقهره ، ويستبدّ به استبداداً شنيعاً . وسيبتلعك أنت أيضاً . قد لا أعيش إلى ذلك اليوم . أمّا أنت ، أيّها الملك « انمركار » ، فستعيش ، وترى ، وتتذكّر قولي .

وحدّق الملك طويلاً في وجه العرّاف وقال :

— إنّ كلامك لفظيعٌ أيّها العرّاف. ولكنْ قل لي : بأيّ عين ترى كلّ هذا ؟

— بالعين التي ترى ما وراء الأشياء . إنّ معرفة الأشياء أيّها الملك إنّما تتمّ بمؤالفتها ، والاحتكاكِ بها على الدوام. فبقدر معايشة الحدّاد أدواته وحِرفتَه يزداد

بها حِذقاً وخَلْقاً . وبقدر ما يرصد رياضيّو « أورخوي» وفلكيّوها النجومَ والكواكب ، يزدادون علماً بحركاتها وسكناتها . أمّا معرفتي أنا فبالتأمّل ومعايشةِ الغيبيّات. وهكذا ، كلمّا انصبّ اهتمامُنا على الأشياء والمحسوسات أغفلنا ما وراء الأشياء ، وكلّما ازداد علمنا بهذه زاد جهلنا بتلك . وسوف يزداد جهل الإنسان مع الزمن لصدوفه عن منابع علمه الأصيل واهتمامِه بتوافه الأمور . وإنّ ما خطّته يد الآلهة على لوح القَدَر لا بدّ أن يكون .

نسرٌ في سماء

عجبَ سكّانُ « أورخوي » ، في ذاك الأصيل ، من نَسرٍ عظيم يحلّق في سماء مدينتهم ويُطيل التحليق . والأعجبُ أنّه كان يغيب حيناً ، ثم يعود ليحوم تارة فوق معبد الإله « انليل » ، الواقع شرقيّ المدينة ، وطوراً فوق قصر الملك « انمركار » ، الجاثم قبالته ، متنقّلاً هكذا بينهما كأنّه يريد أن يحطّ على أحدهما .

وهمَّ جنديٌّ من جنود الملك أن يرميه بسهمٍ حين أسبل جناحيه الأسودين ورفرف على ارتفاع قريب من برج القصر ، لو لم يسارع الخادم « شينا » فيمسك بقوسه :

— إيّاك أن تفعل أيّها الجنديّ ، لعلّ هذا النسر

رسولُ بِشْر !

— وإذا كان نذيرَ شرٍّ أيّها الخادم الأخرق ؟

— الآلهة وحدها تعرف ذلك . من أنت لتتدخّل في شؤونها ؟

وهكذا ظلّ النسر العظيم في تحليقه وتحويمه ، وأبصارُ سكّان المدينة عالقة به ، حتى أعياهم أمرُه فانصرفوا عنه إلى أشغالهم ، ما عدا حارس بوّابة « أورخوي » .

كان هذا الحارس قد تعب من رفع رأسه وهو يَشْخَصُ ببصره آناً إلى النسر ، وآونةً أخرى إلى الطبقة السادسة لمعبد « انليل » التي كانت صفحتها الذهبيّة ما تزال تبرق تحت نور الشمس الآفلة . ولمّا رأى آخر شعاع بنفسجيّ يبارحها مؤذِناً بالغروب ، اندفع نحو البوّابة الكبرى يريد إغلاقها. وفي هذه الأثناء كان العرّاف العجوز « أوكاما » يهرول للدخول . وكان يركض خلفه وينبح كلبٌ أسودُ كبيرٌ . فوقف الحارس بجسمه الضخم في وجه العرّاف معترضاً طريقه :

— دوماً أنت وحدَك تتأخّر ا في كلّ مرّة أقسم

بالإله «شمّش» بأنّي تاركُك في العَراء طعماً للكلاب والذئاب، وفي كلّ مرّة ...

– وفي كلّ مرّة، قاطعَ العرّافُ، تجبن، لأنك تخاف أن أكُمَّ فمك أو أمسخَك ضفدعاً.

– كُمَّ أوّلاً شدق هذا الكلب الذي تهرب منه كالطفل المذعور، أيّها العرّاف الخرّاف!

ودنا العرّاف من الحارس، وراح يمشّي فيه أنظارَه من رأسه إلى قدميه، وبادره:

– كم تبلغ من العمر يا هذا؟

فأجاب الحارس مرتبكاً حين رأى المزاح ينقلب إلى ما يشبه الجدّ:

– خمسين سنة. لماذا؟

– إذاً نصفُها طار!

– ماذا تقول؟

– وإذا تأخّرت لحظةً أخرى طار النصف الآخر، لأنّ الملك في انتظاري.

وأفسح له الحارس على عجلٍ من غير أن يتفوّه بكلمة.

كان الملك «انمركار» في تلك الساعة يراقب بدوره، من أعلى البرج، النسرَ العظيم المحلّق في سماء المدينة، حين أقبل خادمه العجوز «شينا» يخبره بوجود العرّاف «اوكاما» في القصر. فهبط الملك سلالم البرج بسرعة وقد توقّع شرّاً، لأنّ النسر المحوِّم طويلاً فوق قصره كان قد أقلقه:

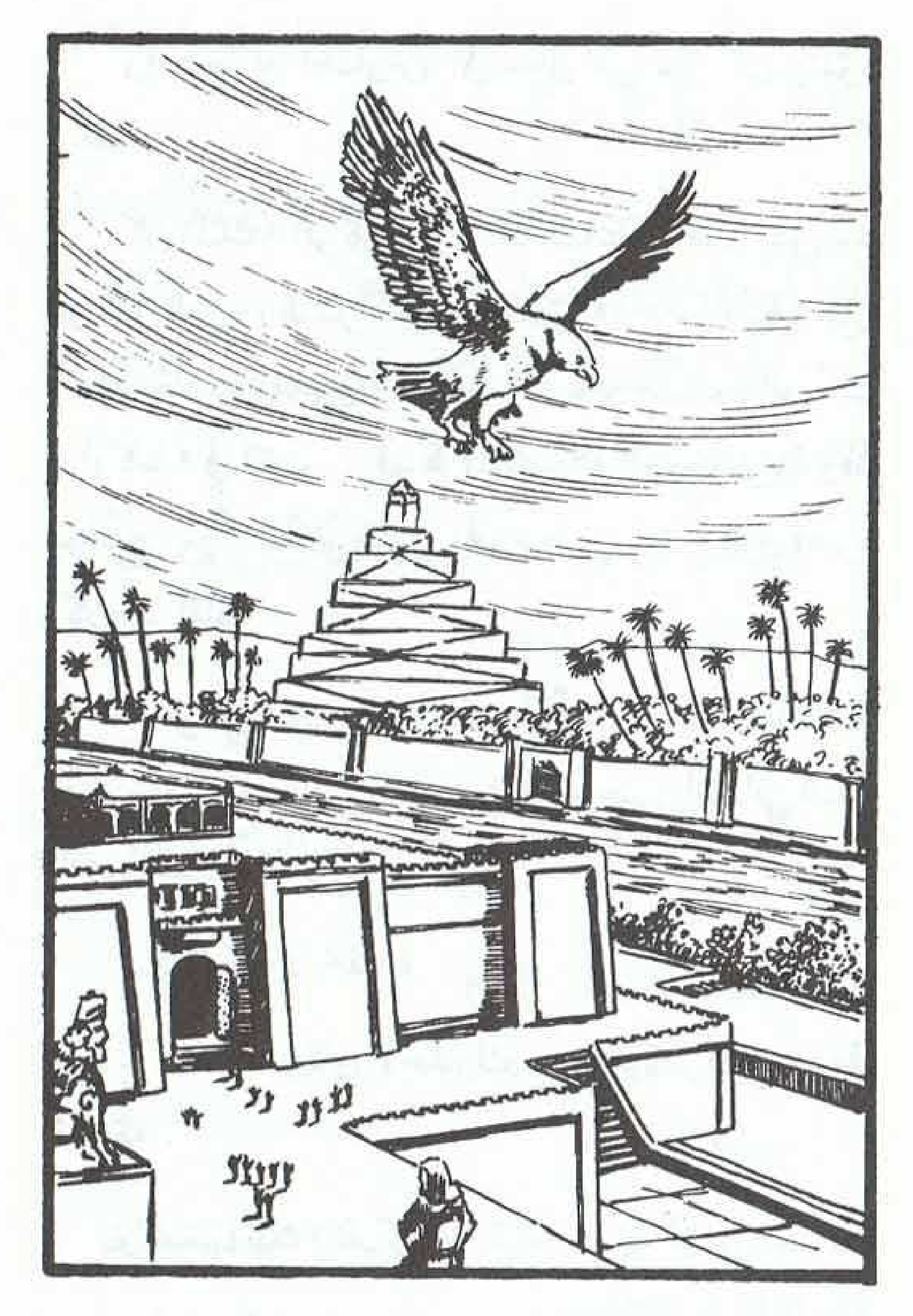
– مولاي! بادره العرّافُ منكّسَ الرأس. منذ ثلاثة أيّام وأنا أتردّد بالمثول بين يديك، حتى أضناني السرّ الذي أحمل في صدري.

– تكلّم ولا تخف!

– جئت مولاي لأحذّرك، وأذكّرك بنبوءتي السابقة.

وغمغم الملك «انمركار»:

– أما تزال تعتقد ...؟



نسر في سماء « اورخوي »

ـ أجل ، مولاي ، فالبنت العاقر ، التي هي ابنتك ، ولدت منذ ثلاثة أيّام ولدَها البكر .

وزمجر الملك :

ـ هذا لا يصدَّق ! لا يصدّق !

ـ إنّها الحقيقة . وما عليك إلاّ أن ترسل أحد جنودك ليأتيك بالخبر اليقين .

وظلّ الملك بعد خروج العرّاف غارقاً في صمته ، ورأسُه بين يديه ، لا يدري ماذا يفعل . ثم نهض فجأة وقد استحوذ عليه غضبٌ مجنون ، فمدَّ رأسه من النافذة التي تطلّ على الحديقة ونظر إلى السماء وتمتم :

ـ وحقّ الإله « شمّش »، حتى لو صدقت نبوءتُك أيّها العرّاف ، لن أسمح لابن بنتي أن يرى النور يوماً رابعاً . سأكذّب النبوءة ! سأوقف حكم القدَر ! سأخنق حفيدي وقاتلي العتيد في المَهْد ، لا بل سأطوّح به حيّاً من أعلى البرج في هذه الأمسيّة ، وأبعثر كلّ شِلو من أشلائه في بقعة من بقاع مملكتي الواسعة .

وفي تلك الأمسيّة بالذات كان « انمركار » ، ملـك « أورخوي » ، يقذف بحفيده وابن بنتـه « ننسون » من أعلى البرج ؛ ولكنّ القدر كان هناك ينظر وينتظر : ففي تلك اللحظة بالذات انقضّ النسر العظيم ، المحلّق فوق القصر ، انقضاضَ الصاعقة على الطفل الهاوي في الأعماق ، فتناوله بمخالبه قبل أن يلامس الأرض ، وحطّه برفق على العشب في زاوية القصر الجنوبيّة ، وعلى مشهد من شخصٍ واحد هو الخادم « شَينا » .

وقبل بزوغ الفجر ، وبينا جميعُ مَن في القصر يغطّون في نومهم ، لفّ « شينا » الطفلَ في رداء خشن ، وخبّأه تحت ثوبه ، وخرج به إلى الحقول ، إلى أخٍ له يعمل في مزرعة نائية تبعد مسيرة يوم عن « أورخوي » .

وقال لأخيه وهو يضع الطفل بين يديه :

ـ هذا طفل خطير ! وكلُّ مكروه يصيبه يصيبك أنت وعائلتك. إعتنِ به كأحد أبنائك ... لا تَسَلْني عن أبويه لأنّي أنا أيضاً أجهلهما... إنّه القدر وَضعه على بابي مساء أمس ، بصورة نسر ضخم كان يحمله بين مخالبه . من أين

أتى به ؟ من أيّ قصر اختطفه ؟ لا تَسَلْني ! ربّما أخطأتُ لأنّي صارحتك بالحقيقة . بأيّة حال ، قل لكلّ من يسالك عنه إنّه ابنك ، وإنّ زوجك ولدته منذ يومين ...

ـ ولكنّ زوجي ولدت السابعَ منذ أسبوع ، فكيف .. ؟ !

ـ إذن قُلْ : هو ابنٌ لبنتك ، أو لأختٍ لك في إحدى القرى ، أو لنسيبة أو قريبة ... تدبّرْ أمرَك ! قُلْ كلَّ شيء دونما تردُّد ، ولكنْ حذارِ أن تخبر أحداً بما أخبرتُك به الآن ، لأنّ الكلّ يعلمون بأنّني أعمل في قصر الملك « انمركار » ...

ـ على فكرة ، ماذا تريد أن أسمّي هذا الطفل ؟

ـ سمّه ماشئت . سمّه « جلجامش » .

★

ونما « جلجامش » وترعرع في البرّية كما الصفصافُ على مجاري « الفرات » : مديدَ القامة ، خارق القوّة ،

فائق الحكمة ، ورائع الجمال ، يمارس كلَّ يوم صيدَ الأسود والغزلان ، ورشقَ السهام ، وركوب الخيل .

وبلغه ذاتَ أمسيّة من أمسيّات الربيع أنّ « انمركار » ملك « أورخوي » يظلم شعبه ، فأقسم أن يضع حـداً لجوره . ويمّمَ على التوّ شطرَ المدينة ، ليناقشه الحساب .

كان الليل قد تقادمَ ؛ وبينما الملكُ يدخل الهيكل ليمارس شعائر الزواج الدينيّ مع كاهنة تقوم بدور الآلهة ، إذا « بجلجامش » ينجم أمامه بكامل مهابته ورجولته . وبعد صراع قصير بينهما رفع « جلجامش » الملكَ « انمركار » في الهواء وقذف بـه من حالقٍ إلى الساحة التي تتقدّم الهيكل . ولم يكن ثمَّةَ نسرٌ في السماء لينقذه ، فتمّ بذلك حكمُ القدر .

ولم يكن « جلجامش » ، بعد قتله الملك ، بحاجة إلى شهادة من أمّه « ننسون » ، أو الخادمِ « شينا » الذي التقطه ، حتى يكشف للناس نسبه الأصيل ، ويثبّت حقّه بالعرش . لقد كان له من قوّته ، وحكمته ، وجماله الذي

لا يضارع ، ما يكفي لكي يعلنه سكّان « أورخوي » ملكاً عليهم ، وهم الذين يمجّدون القوّة ويعبدون الجمال .

وحكم « جلجامش » البلادَ السومريّة بقوّة وعزم وحكمة . إلا أنّه ما عتّم أن انقلب مع الزمن من مليك فاضل ، عاقل ، حكيم ، إلى نمر فاسق شرس كجدّه « انمركار » ، بل فاق بشرّه جميعَ الملوك الذين جاؤوا قبله .

وكان سكّان « أورخوي » يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنّ ثلثيه من إله وثلثَه الآخر من بشر ، وأنّه ابن الإله « لوكولبندا » . ولذلك كانوا يرهبونه ويحبّونه في ان معاً ، يسعدون به مليكاً يحميهم ويحكمهم بقوّة وحزم ، ويتمنّون في الوقت نفسه لو تنقذهم الآلهة من ظلمه .

عروس النهر

- أهوَنُ عليّ يا بنيّ أن أراك ميتاً ليلةَ عرسك من أن أرى عروسك تُذَلّ فيها .

ووقف « ناهير » في وسط الغرفة يحملق في أبيه ، فاغرَ الفم ، جاحظ العينين ، وهو لا يصدّق ما يسمع :

- عروسي تُذَلّ في ليلة عرسها ؟ ولكنْ من الذي يقوى على إذلالها يا أبي ، وأنت « زاديق » كاهن « أورخوي » الأكبر ، وولدُك أقوى فتيانها ، وأمهرهم في الفروسيّة ورمي السهام ؟

وآثر الوالد أن يبقى على صمته ، حتى يهتدي ولده ، من تلقاء نفسه ، إلى الحقيقة المُرّة . غير أنّ هذا ظلّ يروح ويجيء في المكان ، وهو يُزبد ويزمجر كأسد ضُيّق

عليه أفقه إذ وُضع لأوّل مرّة في قفص . ثم تمتم :

- بلى ، شخص واحد يقوى على ذلك ، وهو ...

ووافق والده بهزّة من رأسه ، من غير أن يرفع إليه الطَّرْف .

- « جلجامش » !؟

لفظها « ناهير » بصوتٍ خافت كالمتسائل بينه وبين نفسه .

- أجل . « جلجامش » !

ردّ والدُه وهو ينهض من مقعده ويتّجه إلى النافذة يرقب منها « الفرات » الذي كانت تجيش غواربُه وتُزبد كأنّها تهمّ بتسنّم الضفّتين ، لتجتاح المدينة وتغسل العار اللاحق بها .

وأجفل « ناهير » كما لو كان الجواب يأتيه من بعيد ، كأنّه لم يكن هو الذي لفظ اسم الملك . وتمتم :

- « جلجامش » راعينا الحكيم الذي زوّده إله العاصفة

« أدد » بالشجاعة ، وحباه الإله « شمّش » بالجمال والقوّة التي لا تضارع ؟ « جلجامش » الذي ثلثاه من إله ؟

وعقّب « زاديق » بصوت مجلجل بثّ فيه كلّ غلّه وغضبه :

ـ وثلثه الآخر من نار جهنّم !

ـ أجل . « جلجامش » الذي سبى الرجال والنساء ، فلم يترك ولداً لوالده ، ولا فتاة لحبيبها .

وردّد « ناهير » كالمصعوق :

ـ «جلجامش» الحكيم العارف ، راعي « أورخوي » وسورها المنيع ، يعتدي على أبنائها وبناتها ؟!

وتقدّم الوالد من ولده الساهم ، ووضع يده برفق على كتفه ، وهو يتأمّل بحنان محيّاه الوسيم الذي يشبه شبهاً عجيباً وجهَ أمّه « نهرين »، أجمل نساء «أورخوي» في زمانها ، وقال :

ـ هذي هي الحقيقة يا ولدي ، الحقيقة التي تجهلها ، لأنّ حواسّك ماخوذة ببهاء البراري ، والفروسيّة ،

والصيد ، ولبّك مفتون باللهو البريء خارج أسوار المدينة . لأنّك لم تبلغ بعد السنّ التي يُسلَب لُبُّ المرء فيها بشؤون الحكم وشهوة السلطان وحبّ المجد . إنّ ثقتك بنفسك ، يا ولدي ، واكتفاءك بقوّتك ، وبسالتك ، وشبابك الريّان ، يصرفانك عن كثير من الأمور الخطيرة التي تجري حولك من غير أن تفطن لها ، كالعاشق على شطّ « الفرات » لا يسمع سوى نجوى قيثارته ، ولا يرى سوى صورة حبيبته ، بينما هدير النهر يملأ سمع السماء وبصرها .

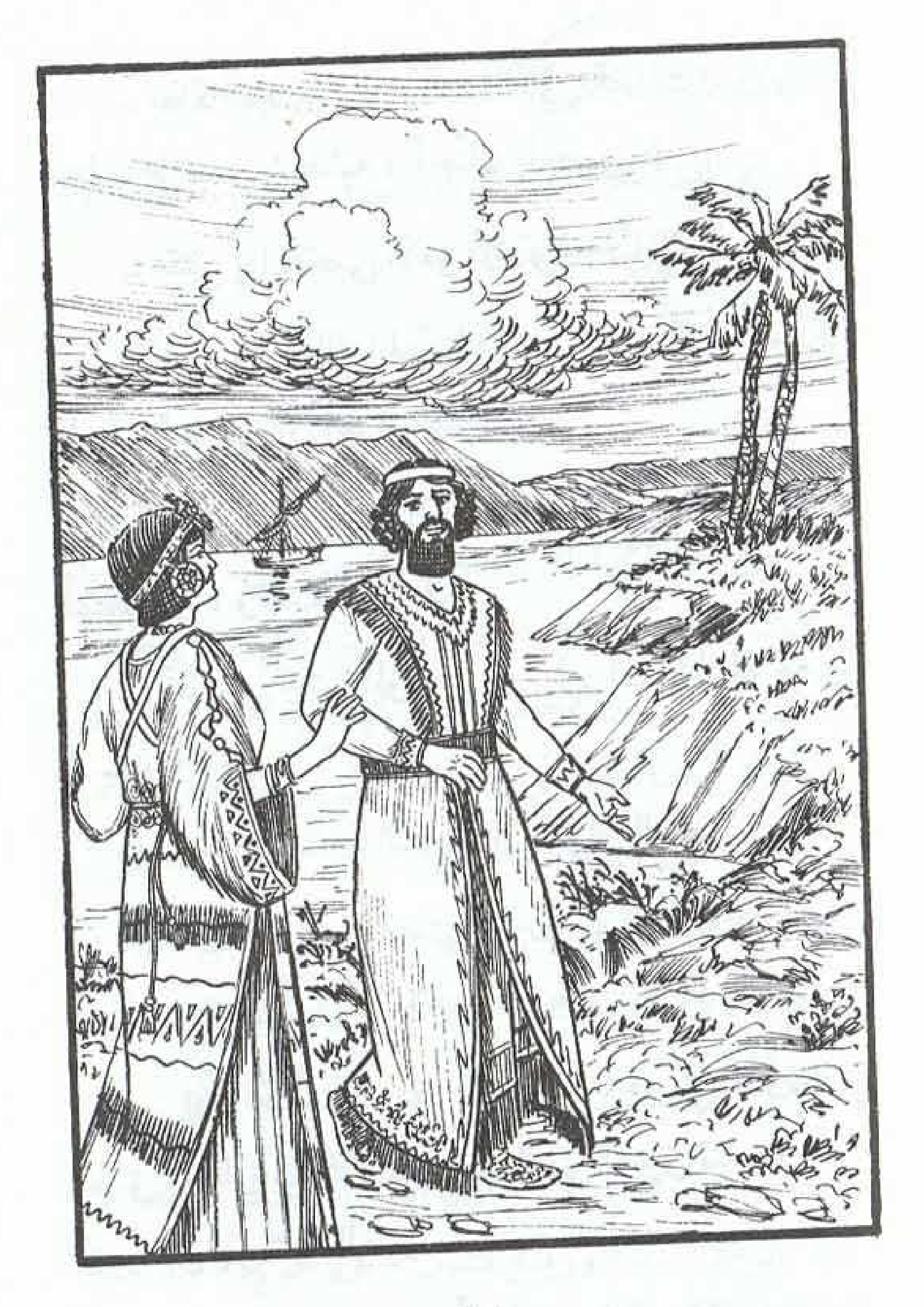
ولم يقوَ « ناهير » على سماع أكثر ممّا سمع . إندفع من الباب كالسهم المنطلق لا يلوي على شيء ، وراح يركض على شاطىء النهر المقابل للقصر . ولحقه والده في ركضته المجنونة ، تتدافع خلفه ، مجنونةً مثله ، خصلاتُ شعره الفاحم كعُرف مُهر أضرَّ به الجمام ، حتى غاب عن أنظاره في المدى البعيد . ومن الجهة المقابلة على الشاطىء كانت تركض لملاقاته خطيبتُه «شيرين » ، رشيقةً ، سريعةً ، ضامرة ، يخال من يراها لأوّل وهلة أنّها غلام

من سنّه أو توأم له . ومثله كانت ضفائر شعرها الفاحمة السبلة تتدافع خلفها لسرعتها . والتحم العاشقان بعد ركضتهما المجنونة في عناق طويل وضمّة خرساء باهرة . حتى إذا استردّا الأنفـــاس ، وعاودت قلبيهما دقّاتهما الطبيعيّة ، تبادلا النظرات . ورأت « شيرين » في عيني خطيبها شروداً بعيداً وكآبة إلاّ أنّها ، في لحظة من نشوتها ، ظنّت أنّه إنّما أقبل ليزفّ إليها بشرى قرانهما الوشيك ، وأنّ الفرحة هي التي أخرست منه اللسان . ولكنّه لمّا سبقها فجاة بفكّ ذراعيه القويّتين عن قدّها الرشيق ، توقّعت شرّاً قريباً .

ـ تحبّينني يا « شيرين » ؟

وبحدْس المحبوب الذي قلّما يخطىء ، رأت الشرّ الذي توقّعته يذرّ قرنه خلف هذا السؤال الذي طالما سمعته منه ، وسكرت به ، وأحبّت تكراره من شفتيه .

واستنجدت « شيرين » بكلّ ما تبقّى لديها من قوّة وإرادة ورباطة جاش ، وأجابته من غير أن تفارق بسمتها الرائعة زاوية شفتيها :



عروسا النهر

- بعدد النجوم، وحبّات الماء في «الفرات»، وذرّات التراب على مدى شاطئيه، أحبّك يا حبيبي!

- حتى إذا اقتضى الأمر أن تموتي حبًّا بي يا حبيبتي؟

- أحبّك إلى ذلك الحدّ يا «ناهير»، وأكثر. ولكن هل لي يا حبيبي أن أعرف السبب؟

واحتضن وجهها الصغير المحبوب بين كفّيه الضخمتين، وتأمّلها طويلاً:

- تحبّينني حتى الموت، ومن غير أن تحاولي معرفة السبب يا «شيرين»؟

وطفحت مقلتاها السوداوان بلؤلؤ الدمع:

- أحبّك «ناهير» حتى الموت، ومن غير أن أعرف السبب يا حبيبي.

- إذن ضُمّيني إلى صدرك ياحبيبتي، ودعيني أطبق أجفاني عليك، لأنّ مياه النهر العميق تنادينا بحنين كبير إلى فِراشها الوثير.

وبقلبٍ واحد، وحبٍّ واحد، ارتمى الاثنان، كتلةً

واحدة، في مياه النهر العميقة، فغيّبتهما إلى الأبد.

وعلى الضفّة المقابلة كان صيّاد عجوز يشهد أوّل عروسين يُزفّان «للفرات»!

*

وكان في «أورخوي» حزنٌ عظيم على «ناهير» و«شيرين» لم تشهد له المدينةُ مثيلاً من قبل. سبعة أيّام ظلّت النساء يبكينهما ويندبنهما بترانيم «الشيرو» الشجيّة، ورقيقِ المراثي. وعجب الجميع كيف يُقدم على الانتحار فتى وفتاةٌ وُهبا الحبّ والجمال، والمال والجاه، وكلّ ما يشتهيه إنسانٌ في الحياة. ألكاهن الأكبر «زاديق» ظلّ، وحده، محتفظاً بالسرّ، حتى نهاية اليوم السابع لأحزان المدينة. ثم باح به لزوجه وهو يشرق بالدمع، فعاتبته باكيةً شاكية:

- ولكنْ كيف لم تحاول أن تردّ حكم القضاء عن ولدك الوحيد، وزينةِ فتيان «أورخوي»، بما لديك من دالّة عند «جلجامش» وسلطان؟

- لأنّ سلطان نزواتـــه عليه أقوى وأدهى أيّتها الزوجة الطيّبة . تقولين كيف لم أحاول ؟ بلى ، حاولت . وفكّرت بأن أهرع إليه ، قبل أن يحمّ القضاء ، وأمرّغ رأسي بقدميه ، وأقبّل ركبتيه ، كي لا يخطف من ولدي عروسَه . . .

وزعقت « نهرين » غاضبةً مقطّبة :

- أنت « زاديق » ، كاهن « أورخوي » الأكبر ، تمرّغ الرأس بقدمي « جلجامش » ؟ تركع أمامه ؟

- وهذا ما جعلني أحجم ، وأؤثر حكم القضاء وموت ولدي ، على الإهانة الكبرى والذلّ الفظيع .

ونقلت زوجة الكاهن الأكبر السرّ إلى صديقاتهـــا والخادمات ، فالتقطته آذانُ المدينة كلّها .

ثورة في "أورخوي"

وكان، بعد الحزن الكبير على « ناهير » و« شيرين » ، سخطٌ جماعيّ أكبر في « أورخوي » . لا بل كان هناك تذمّرٌ وتمرّد وشبه ثورة ضدّ السلطة الغاشمة الحاكمة بامر الإلـه .

فتشاور في أمر « جلجامش » حكماءُ « أورخوي » السبعة ، وكهنةُ الإله « آنو » كبير الآلهة . وتساءلوا بعد جدال ونقاش طويلين : هـــل يُطيحون سلطانَ « جلجامش » الجبّار العاتي ، أم يتركون أمرَه للآلهة ؟ وقال « زاديق » الكاهن الأكبر بعد فترة صمت :

- إنّ الشعب يعشق في « جلجامش » الجمالَ والقوّة والحكمة إلى حدّ عبادته، ولكنّه يكره فيه الجورَ والظلم

والطغيان إلى حدّ التمرّد عليه . وبما أنّ ثلثيه من إله كما تعرفون ، فليس لنا سوى الآلهة لتدبّر أمره .

وعقّب الشيخ « يَمّا » رئيس الحكماء السبعة :

ـ أمّا ثلثه البشريّ فنتدبّره بحكمتنا نحن .

وكاد الجميع يُغربون في الضحك لولا أنّ المتحدّث هو الشيخ الحكيم الذي يعرفون .

وبصوت واحد ، وروح واحدة ، رفع الكهنة والحكماء السبعة هذه الصلاة للإله « آنو » رئيس الآلهة :

« أيّها الإله « آنو » ، ياربَّ « أورخوي » ،
يا من خلقت الوحش القويّ الجبّار ،
الذي لا يضاهي جمالَه جمالٌ
ولا يضارع فتكَ سلاحه سلاحٌ ،
إنّ « جلجامش » هذا ، ياربّ ،
الذي هو سور « أورخوي » وحاميها ،
لا يَني يضطهد أبناءها وبناتها .
ألا أيّها الربّ القدير ،

مُرْ « أورورو » العظيمة
أن تخلق غريماً « لجلجامش »
يماثله في القوّة والباس ،
ويحاكيه في الروح والتفكير ،
وقلباً عاصفاً مثل قلبه أعطِه يا ربّ ،
ليشتبكا في صراع على الدوام
فتهنا « أورخوي » بسلام ... »

وبعد أن فرغوا من الصلاة قال « يمّا » ، شيخُ الحكماء السبعة وبحرهم العميق في المعارف :

ـ بما أنّ « جلجامش » ثلثاه من إله وثلثه الباقي من إنسان ، ففي هذا الجزء الأصغر يكمن الشرّ الأكبر . أمّا كيف نتدبَّر هذا الجزء الإنسانيَّ فيه ، الذي يؤرّث عنده الشرورَ إلى حدّ الاعتداء على رعيّته ، فهذا لن يكون طبعاً بإطلاقها وتحريرها ، وإنّما بتحريره هو منها . فالإنسانُ الجديد الذي ستخلقه « أورورو » ـ هذا إذا لبّت الآلهة طلبنا ـ هو وحدَه قادرٌ على تحرير « جلجامش » من غرائزه ونزَواته ، وحيويّته الحيوانيّة ، ليس فقط

بالتلاحم معه في صراعٍ مستميت قد يكون فيه هو الغالب
أو المغلوب ، وإنّما بتصادُقه معه . فعندما ينقلب الخصم
العنيد إلى صديـــق له حميمٍ ، ينصرف « جلجامش » عن
جنونه الشرّير إلى جنون من جنس آخر كجنون الصيد ،
والسفر ، والمغـــامرات ، والفروسيّة ، واللهو البريء
خارج أسوار « أورخوي » . وهكذا ترتاح « أورخوي »
من شرّ « جلجامش » وتستفيد من خيره ، لأنّه ، بأيّة
حال ، حامينا وسورُنا المنيـــع ،وسوف يظلّ أحكمَنا
جميعاً . وأسفارُه في المستقبل ستزيده حكمةً ولا ريب ،
لأنّ الأسفار ، كما تعلمون ، تزيد الحكيم حكمة .

« أنكيدو »

وبلغت صلوات كهنة « أورخوي » وحكمائها السبعة
عرشَ الإله « آنو » ، فاوعز إلى الإلهة « أورورو » أن
تخلق نِدّاً « لجلجامش » ونظيراً له في القامة ، والحكمة ،
والقوّة البدنيّة . وراحت الإلهة تفكّر في صنع هـــذا
الإنسان على صورة الإله « آنو » ذاته ومثاله ، ويتحلّى ،
فضلاً عن ذلك ، بفضيلة إله الحرب « نينورتا » .

وفي يوم من أيّام الربيع ،ونيسان يكسو ضفّتَي النهر
العظيم بالسندسيّ البهيّ ،ووحوشُ الغاب في صمت وذهول
كأنّها تترقّب المخلوق العجيب الذي سيبدّد وحشتها
ويفهم لغتها وتفهمه ... في هذا اليوم الفريد بين الأيّام ،
نزلت « أورورو » من عليائها وغطّست ذراعها الفضيّة

عميقاً في مياه « الفرات » ، والتقطت حفنة من طين بارد نقيّ ورمتها في البرّية ، فصارت إنساناً سويًّا دعته « أنكيدو » ، أي « صنيع الإله وشبيهه » .

وكان « إنكيدو » بهيّ الطّلعة ، خارق القوّة ، ونبيلاً جليلاً كأنبل ما يكون إنسان خُلق على صورة إلهه ومثاله : مارد الجسم خشنه ، يتدلّى شعره الطويل على كتفيه كضفائر النساء ، وينوس ويتماوج كشعر إلهة القمح « نيصّابا » . وكان جسمه مكسوّاً كذلك بالشعر ك « سموقان » إله الماشية . لا يعرف شيئاً عن العمران ، ويجهل حتى الإنسان .

وكان «أنكيدو» يقتات بالثّمار وعشب التلال كالغزال البرّيّ ، ويعيش مع السباع فينهل من مشاربها ، ويشاركها ألعابها الوحشيّة ؛ فتعلّم هكذا سائر حيلها ، ووقف على ضروب مَطاعمها ومشاربها ، وألمّ بلغتها واقتصاص آثارها الخفيّة ، ممّا جعل حواسّه تزداد رهافةً : يسمع كلّ همس ، ويتنشّق الروائح من بعيد ، ويخرق بصرهُ الحديدُ عتمةَ الليل الحالكة . وعرف كذلك

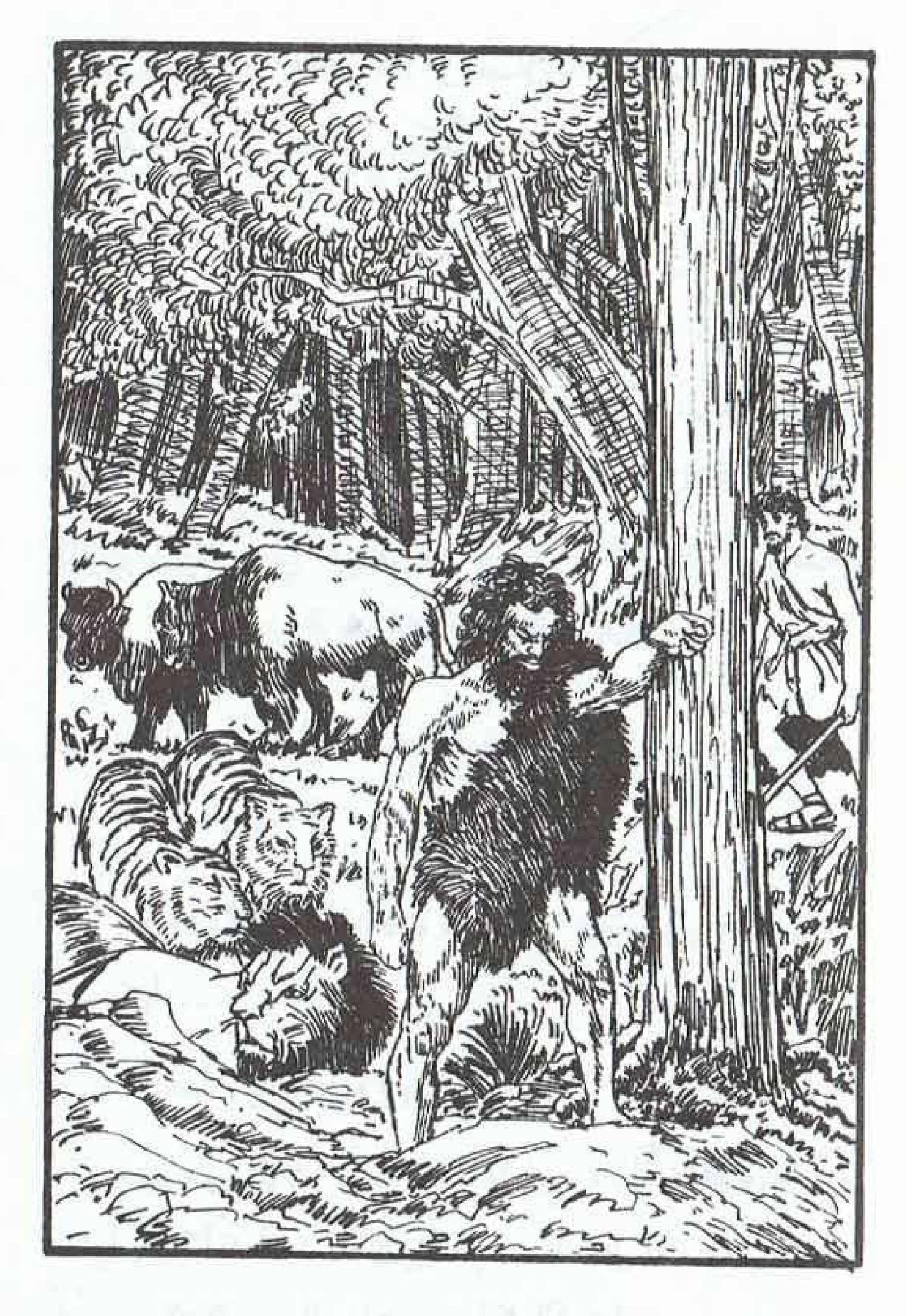
كيف يتعهّد الحيوانُ مواليده بالتدريب والتدبير ، وكيف يتداوى إذا مرض ، ويدفن جِيَفه حين يموت ، وكيف يختبىء ويتّقي أعداءه وعوامل الطبيعة في كلّ الفصول. وألف « أنكيدو » بعضَ الحيوانات فاستأنس بها واتّخذها أصدقاء له وأعواناً ، وتحاشى البعض الآخر وتجنّبه بسببٍ من شرّه وشراسته، وغدرِه وسمومه الفتّاكة، كالصّلال والأفاعي والعقارب والعناكب السامّة وغيرها . وحذق الكثيرَ من فنون حيوان الغاب ومهارتها ، كالهجوم والدفاع ، والكرّ والفَرّ ، والتصدّي والبطش ، حتى إنّه فاق بعضَها حيلة وخفّة ومرونة ؛ فبرع بالقفز والوثب والركض ، ومهر بلفّ الحِبال ، ونصبِ الفخاخ ، ورشقِ السهام ، وقذفِ الصخور ، والضربِ بالعِصيّ والجذوع والمِقْلاع . ثم كان أن اهتدى مع الزمن إلى النباتات الشافية للأمراض الداخليّة ؛ فداوى الجروح والقروح الناغلة برحيق الأزاهير ، وعصير بعض الأعشاب ، ممّا جعله سيّد الغاب بلا منازع .

وبينا « أنكيدو » يلاعب في أحد أيّام الصيف القائظة

غزالاً برّياً ، ويتسابق معه في ممرٍّ ظليلٍ عبرَ الغابة ، شاهده يسقط في حفرة ، في بعض الطريق ، ويغيب عن نظره ، فاستشاط غضباً وبَرْبَرَ بصوت أجفلَ حيوان الغاب وأرعبَه . وبعد أن أنقذ الغزال الساقط راح يقتلع صخوراً لا يقوى عشراتُ الرجال على زحزحتها ، ويرميها في تلك الحفرة ويتبعها بأشجار يقتلعها من جذورها .

وكان الصيّاد المعروف «ياشير» يرقبه من مخبئه خلف الدَّغل ، وقد أخذ منه الرعبُ والعجب كلَّ مأخذ . ثلاثَ مرّات على التوالي رآه يطارد الغزال بسرعة الغزلان ، ويقتات بالنبت كالحيوان ، ويقطع الشّباك التي نصبها لطرائده كأنّها القطن المندوف . ورآه كذلك يقتلع الصخور والأشجار من الجذور ليطمر بها الحفر التي أعدَّها الصيّاد لصيده . وهالَه ما أبصر ، وطار يسبق الريح ليُخبر أباه ؛ فارُتِجَ عليه حين وقف حِيالَه صامتاً وشباكُه المقطّعة ترجف بين يديه . فصاح به أبوه :

– ويحَك ! ماذا دهاك ؟ ولِمَ امتُقِعَ لونُك



« انكيدو » وسط الغابة

وشُلّت منك الأطرافُ واللسان ؟ هل لسعتك أفعى ، أم تعقّبك أسدٌ ؟ هيّا ، تكلّمْ !

وبكلام مترجرج، متقطّع، راح «يا شير» يروي لأبيه القصّة :

ـ أبي ، رأيت في الغابة رجلاً لا كسائر الرجال : بطول « جلجامش » ، ومهابته ، وقدرته . ثلاثة أيّام على التوالي رأيته، وفي كلّ مرّة ياتي من التلال مارّاً بحقلك ، ليَرِدَ الماء ويمارسَ هوايته مع الحيوانات . . .

ـ يمارس هوايته مع الحيوانات ؟ أيّ نوع من الناس هذا ؟ وما هوايته ؟

ـ إنّه يلاعب الغزلان يا أبي ، ويتسابق معها ، ويسبقها . . .

ـ إنسان بقدمين ويسبق الغزال ؟

ـ وحقّ الإله « شمّش » يا أبي ، إنّه أقوى رجال الدنيا . لكأنّه أحد الخالدين هبط من السماء . ألا إنّه يَجُوب التلال مع السباع ، ويأكل الأعشاب . . .

ـ يأكل الأعشاب ؟ إنسان يأكل الأعشاب ؟

ـ بامّ عينيّ هاتين رأيته يقضم حزمة من العشب . لا تظنّنّني مخبولاً يا أبي . إنّي أخاف الذهاب إلى هناك مرّة أخرى ، إذ لن أجرؤ على الاقتراب منه . لقد طمر بالصخور وجذوع الشجر الخندقَ الذي حفرتُه . ثمّ انظرْ بعينك ! لقد قطع شباكي كما لو كانت من خيوط العنكبوت ! إنّ هذا الإنسان الوحشيّ صديقٌ للحيوان الذي أصطاد ، فهو يعاونه على الإفلات من يدي .

حلم «جلجامش»

كان الليل قد تقادمَ ، وتكبّد قمرٌ منيرٌ قُبّةَ السماء ، تكاد أطرافُه المخمليّة تُلامس الطبقةَ السادسة لمعبد «آنو» ، كأنّما ليرعاه ويباركه بنوره الدافىء . وكان قصر «جلجامش» ، الذي يتحاسقه باسِقُ النخل ، وتُطلُّ منه الشرفات على «الفرات» ، يتلقّى فيضاً من نوره ، يُواكبه خرير النهر الخالد . وكم كان يطيب «لجلجامش» أن ينام على ذَيّاكَ الخرير الشبيه بمُناغاة الأمّهات لأطفالهنّ قبل النوم .

في تلك الليلة رأى «جلجامش» حلماً أقضّ مضجعه وأطار قلبه خوفاً . وفي باكر الصباح استدعى أمّه الإلهة «ننسون» العارفةَ بكلّ شيء – وكثيراً ما لجأ إليها

واستشارها في مهامّ الملك وغيرها من الأمور التي تستعصي عليه ، رغم حكمته الفائقة وتبحّره في سائر المعارف – وأخذ يقصّ عليها حلمه :

– رأيتُني يا أمّي ليلةَ البارحة – كان ذلك بعد منتصف الليل بقليل ، ونورُ القمر يملأ غرفتي بشكل عجيب – رأيتُني وسط حلقة من رجالي الأبطال ، وأنا في غاية البهجة والحبور ... وكنّا نسير خلل الليل تحت فلك مرصّع بالنجوم ، حين سقط من السماء نَيزكٌ كأنّه الإله «آنو» . سقط أمامي ، وعبثاً حاولت زحزحته ، لثقله الهائل . وعند ذلك أقبل سكّان «أورخوي» جميعُهم ليروه ، فازدحم حوله الرّعاع ، وتدافع الأشراف والنبلاء جماعاتٍ جماعاتٍ ، ليقبّلوا أطرافه . ورأيتُني يا أمّي مجذوباً إلى ذاك النّيزك . وهبّوا جميعاً لمساعدتي ، فجذبته نحوي وحملته إليك . فقمتِ أنت ، وأعلنته بنفسك أخاً لي .

وقالت أمّه «ننسون» ، التي وُهبت حكمةً عظيمة:

–إنّ ما رأيتَه يا ولدي هو هذا : فنجمُ السماءِ الذي

انحنيت عليه هو صديق لك قويّ ، صديق يعين الصديق عند الضّيق . وإنّه لأقوى المخلوقات المتوحّشة طرًّا ... وليدُ المراعي الخضراء ، وربيب الجرود والمرتفعات الموحشة ... وعندما تقابله ستسعد بلقياه ، لأنّ قوّته تضارع قوّة أحد الخالدين . هذا هو تفسير حلمك يا ولدي .

فقال « جلجامش » لوالدته فرحاً :

ـ إنّه الحظّ وافاني !

وأحسّ « جلجامش » في صباح ذاك اليوم برغبة ملحّة تدفعه إلى حديقته للقيام بنزهة فيها . وللمرّة الأولى لم يشعر بحاجة لتناول فَطوره . كان فرحاً على غير عادته ، وقد استهوته الخضرة حوله والأزاهيرُ كما لم تستهوه من قبلُ ، لا بل كأنّها لم توجد من قبل على الإطلاق . وأحسّ بحركة خلفه ، فاستدار ، فإذا أحدُ حرّاسه يأتي إليه فيخبره بأنّ الصيّاد « ياشير » ووالده الكهل واقفان بباب القصر يريدان أن يُسرّا إليه بأمر في غاية الخطورة ، بأمر لا يمكن تأجيله بحال من الأحوال .

وفي فَيء شجرةِ نخلٍ وارفة الظلّ ، راح الصيّاد « ياشير » ووالده يرويان ، راكعين ، الخبرَ الذي لا يمكن تأجيله بحال من الأحوال ، بينما « جلجامش » مستند إلى جذعها يستمع إليهما باهتمام بالغ .

وقاطع أحدهما الآخر غيرَ مرّة ليفوز بشرف السّبق في رواية الخبر المثير ، حتى قال الوالد أخيراً :

ـ رأيت البارحة أيّها الملك العظيم ... أو بالأحرى رأينا نحن الاثنين ، أنا وولدي « ياشير » ... لا ، بل عفوك أيّها الملك ، لقد رأى ولدي « ياشير » ...

فقاطعه « جلجامش » :

ـ إذن دَعْ « ياشير » يتكلّم أيّها العجوز الأخرق !

وبعد المقابلة ظلّ كلام الصيّادَين يضجّ في سمعه :

ـ رجل ، أيّها الملك ، ولكن أيّ رجل !

ـ بطول هذه النخلة وأطول .

ـ يأكل العشب كالحيوان .

ـ ويسبق حتى الغزلان .

ـ يقلع الأشجار من الجذور .

ـ ويخنق الأسد كالعصفور

ولم ينم « جلجامش » تلك الليلة ، ولا في التي بعدها . وظلّ يتساءل : أيمكن أن تخلق الآلهة إنساناً شبيهاً به بالحكمة والقوّة ، يزاحمه بالملك ؟

أليس هذا حقّه وحده ، ووقفاً عليه دون سائر الناس ؟!

وحتى قول أمّه « ننسون » بأنّ هذا المخلوق الجبّار سيكون عوناً له وصديقاً لم يُرخه ولم يطمئن باله . وفكّر أوّل الأمر باستدعاء جميع حكمائه ، والكهنة ،والعرّافين، ليستشيرهم بامره . بَيد أنّه طرد الفكرة ، وذهب بنفسه إلى أمّه ينقل إليها الخبرَ كما سمعه من الصيّادين . فقالت له هاشّةً مغتبطة :

ـ لقد تحقّق حلمُك يا ولدي ، وصحّ تفسيري له . أبْشِرْ ، فهذا هو الصديق العتيد الذي توقّعتُه لك !

ـ ولكنّكِ توقّعتِ لي إنساناً حيواناً ، وهو أقوى منّي بكثير !

ـ لن يكون كذلك . سنجعله إنساناً .

ـ ولكنْ كيف السبيل إلى ذلك يا أمّي ، وهذا الإنسان المتوحّش يسبق الغزلان، ويأكل العشب، ويقتلع الأشجار من الجذور ؟ . . .

ـ لا عليك يا ولدي. أرسل أوّلاً في طلب الصيّادَين اللذين رأياه وأخبراك عنه ، وأنا ذاهبة لإحضار « تامار » .

ـ « تامار » ؟ وما دخل هذه المرأة في الأمر ؟

ـ لتروّض حيوانك الجميل . حكمة النساء دَعْها للنساء يا ولدي .

وبعد ثلاثة أيّام كان يَمثُل بين يدَي « جلجامش » الصيّادُ « ياشير » ، وامرأةٌ في غاية الجمال هي الراقصة « تامار » . وكانت « تامار » تضارع الربّة « عشتار » حسناً ورشاقةً وحلاوةَ حديث ، ومثلَها كانت خبيرة بفنون الحبّ .

وقال « جلجامش » يوجّه الكلام للاثنين ، وهو يحدّق دوماً في وجه « تامار » :

– ستنطلقان الآن معاً إلى « غابة الوعول» ، إلى حيث يمرّ « الفرات » في جريانه من جهة الشرق . إنّها تبعد عن « أورخوي » مسيرةَ ثلاثة أيّام . « ياشير » يعرف المكان جيّداً . ستختبئان خلف الدغل ، حتى إذا قدم الإنسان الوحش ليَرِدَ الماء كعادته،اسبقيه أنت إليه يا « تامار »... فما إن تقع عينه على مفاتنك حتى يقع في حبّك وحبائلك .

« تامار » و « أنكيدو »

كان الفجر قد آذن بالبزوغ، وبدأ حيوان الغاب ينفض عنه النوم ، ويتحرّك ، ويسعى من مخابئه ليَنشد قُوت يومه ، شأنه في ذلك شأن الإنسان . وراحَ « ياشير » و « تامار » يتأمّلان من مخبئهما هذا المشهدَ العجيب ، مشهدَ الطبيعة في يقظتها . وكانت « تامار » مأخوذة به ، وقلبُها يقرع صدرها رهبةً ورغبة : فهي للمرّة الأولى تشهد هذه الطبيعة الساحرة ؛ لقد اعتادت هذه الراقصة أن تعيش في ظلمة الهياكل الباردة . أمّا الحبّ ، أمّا السحر ، أمّا الانتشاء الأكبر ، فتغدقها الطبيعة ، هنا ، بسخاءٍ ما بعده سخاء ، في مهرجان الأنوار والظلال ، والمياه والخضرة ، وعطر النبات، وموسيقى الغاب التي لم تعزف

مثلها نايات « أورخوي » وقيثاراتها الفضيّة .

وصاح « ياشير » :

ـ « تامار » ، لقد أقبل وحشُك الجميل !

غير أنّ « تامار » كانت ما تزال مسحورة بنشوتها الحسيّة ، سكرى باريج الحشائش والأزاهير ، لا تسمع سوى نشيد الغاب المظفَّر . وحين صدم سمعَها ثانية قولُ « ياشير » انتفضت كالمستفيقة من حلم جميل . وكانت الغابة حولها ترين عليها سكينةُ المعابد . وللمرّة الأولى شعرت بالخجل من التعرّض لأحد الرجال، وهي التي أحبّت منهم الكثيرين في « أورخوي » . لقد انتابتها فجأة ، ومن غير أن ترى الحبيب القادم ، أحاسيسُ العروس حين تُزفّ لعروسها في هيكل الحبّ الطاهر .

وعاد الصيّاد يلحّ :

ـ أسرعي « تامار » ، حبيبك أقبل من التلال البعيدة ! لا تخجلي .

ورأت « تامار » « أنكيدو » يدلف نحو المكان ، في

موكب مهيب من حيوانات الغاب ، وهو يتألّق كنجم في كامل قوّته ورجولته

وانتشت بسحره . ورأت نفسها ، ودونما إرادتها ، تنطلق أمامه ، لتنضمّ حيواناً أليفاً إلى قطيع الحيوان الذي يصطحب .

ورآها « أنكيدو » ، ووقف يتأمّلها بذهول وهيام ، ومعه وقف رفقاؤه الظّباء والوعول والنمور والأسود . لم يرَ في حياته بين وحوش الغاب مثلَ هذا الحيوان الغريب الرائع الجمال . لكأنّه نَجَمَ له ، هكذا ، بغتةً ، من زهر الأقحوان ، أو انبثق من شجر الحور الريّان على مجاري المياه ، أو من حقل الزنبق ، لأنّ في هذا المخلوق الجميل من الرشاقة ، وامتشاق القدّ ، وبياض البَشَرة ، والبهاء والنقاء ، ما لهذه جميعاً ، وأكثر !

وأحبّت « تامار » « أنكيدو » ، وأحبّ « أنكيدو » « تامار » . ولبثا معاً في الغابة مدّة من الزمن لا هي بالطويلة ، ولا بالقصيرة القصيرة ، ظلاّ يتبادلان خلالها الحبّ ، ويتبادلان الكلام الرقيق الذي علّمته إيّاه

من جملة ما علّمته من آداب الناس وسلوكهم وعوائدهم.

وهكذا نسي «أنكيدو» مسكنه في الجرود، وسلا رفقاءه الحيوانات، وزايله بعضُ قوّته البدنيّة كذلك. فحين همّ ذاتَ صباح بمسابقة غزال صغير، على جاري عادته، وجد أنّ قوّته تخونه، وركبتيه تخذلانه، وأنّه فقد رشاقته. لا بل أحسّ كأنّ جسمه مقيّد بالحبال والذي أحزنه بخاصّة هو أنّ الحيوانات بدأت تنفر منه وتولّي الأدبار مجفلة كلّما التقت به. إلاّ أنّه شعر بأنّ قوّة أخرى حلّت محلّ قوّته البدنيّة: لقد شعر بأنّه ازداد حكمةً وفطنةً، وبانّ قلبه عمر بأفكار الرجال. وإذا به يعود من ركضه خلف الغزال الشارد، فيقعد بجوار «تامار»، عند قدميها، ويصغي إلى أقوالها بحبّ واهتمام. قالت له:

ـ لقد أصبحتَ إنساناً حكيماً يا «أنكيدو»، صرتَ شبيهاً بالآلهة، فعَلامَ ترغب بمجاراة الحيوان ومطاردة الغزلان فوق التلال؟ تعالَ معي يا حبيبي. سآخذك إلى مدينة «أورخوي» المحصّنة الأسوار، وإلى معبدها

المقدّس، معبد «عشتار» و«آنو» الهي الحبّ والسماء.

ـ ولماذا تريدين أخذي إلى هناك أيّتها المحبوبة «تامار»؟

ـ لأنّ هناك يعيش «جلجامش» الفائق الجمال، والخارق القوّة، الذي يبسط سلطانه مثل ثورٍ وحشيّ فوق الناس جميعاً.

وشعر «أنكيدو» بالإهانة. جَرحت رجولةُ «جلجامش» الفائقةُ كرامتَه، إلاّ أنّه عاد فأحسّ بحاجته إلى صديق مثله يجاريه بالقوّة ويفهم قلبه، إلى إنسان يانس إليه بعد أن فقد صداقته للحيوان، فيبادله الرأي ويشاركه الحوار. وبلهفة كبيرة قال «لتامار»:

ـ هلمّي أيّتها المرأة وخذيني إلى ذاك المعبد المقدّس، إلى بيت «آنو» و«عشتار». طيري بي إلى «جلجامش» الذي قلت إنّه أقوى الناس جميعاً.

ـ ولماذا تريد أن آخذك إليه بهذه السرعة؟ لتنازله على

طريقتك الوحشيّة القديمة؟ ألم تتروض بعد يا «أنكيدو»، يا حيواني الجميل؟

وأغربت «تامار» في الضحك. وظنّ «أنكيدو» أنّها تسخر منه فزمجر:

ـ أجل، سأتحدّاه وأنازله! سأصرخ عالياً في «أورخوي» لكي يسمعني الجميع: «أنا الذي وُلدتُ في الجرود، أنا هو الأقوى».

ـ إذن تعالَ معي لآخذك إليه. أُعرفُ قصره جيّداً. قصره سيسحرك بارتفاعه، وكذلك الناس هناك. ألناس في «أورخوي» يا «أنكيدو» يلبسون أفخر الثياب، ويتخطّرون بأبهى الحلل. وكلّ يوم عندهم مقدّس، وكلّ يوم عيد.

ـ وهل عندهم فتيان أقوياء، وفتيات جميلات مثلك يا «تامار»؟

ـ ستدهشك رؤية فتيانهم وفتياتهم إنّهم رائعو الحسن.

وحين رأت «تامار» أنّ «أنكيدو» يطير فرحاً لأقوالها أردفت:

ـ إيه «أنكيدو»، أنا أعرف أنّك تحبّ الحياة بكلّ جوارحك. كيف لا وأنت ربيب الغابات، وقد تكحّلت عيناك، أوّل ما تكحّلتا، بنور الفجر وزرقة السماء وخضرة البراري، وتشنّفت مسامعك، أوّل ما تشنّفت، بنشيد الغاب وخرير السواقي؟ أنا أعرف أنّك ستسرّ «بجلجامش»، لا بل وتعشقه، لأنّه هو أيضاً مثلك رجل قويّ، ويحبّ الحياة.

وضحكت الراقصة ثانية لتثير حفيظته، وقالت بتخابُث:

ـ إلاّ أنّ «جلجامش» أقوى منك بكثير يا «أنكيدو»، فحذارِ أن تتبجّح أمامه، لأنّ الآلهة «آنو»، و«أنليل»، و«أيّا»، قد حَبَتْه بحكمة فائقة، وقوّة لا تضارع، وحيويّة لا نفادَ لها. إنّ «جلجامش» يا «أنكيدو» لا يعرف معنى الراحة لا في الليل ولا في النهار. وسوف أريك إيّاه عمّا قريب. ستبهرك رجولته

المتالّقة ، ولن تشبع عينُك من التفرّس في ملامحه الفتّانة ، لأنّ تلك التي ولدته هي الإلهة « ننسون » القويّة كبقرة وحشيّة .

وتساءل « أنكيدو » وقد دهش لأقوال « تامار » :

ـ وهل يعرف « جلجامش » بوجودي هنا ، أو بقدومي إليه ؟

ـ إنّه يعرف كلّ شيء . هيّا انهض الآن من على الأرض التي هي مفترش الرعاة .

فامتثل «أنكيدو» لأمرها، وقد وقعت أقوالها في قلبه موقعَ الرضا . ومزّقت « تامار » ثوبها شطرين ، فاكتفت هي بشطر ودثّرت بالباقي « أنكيدو». ثم أخذت بيده كما تأخذ الأمّ بيد طفلها ، وسارت به إلى حيث يخيّم الرعيان ويمدّون موائدهم .

فتحلّق هؤلاء حوله يتأمّلونه بفضول ، وذهول ، لأنّ جسمه المعضّل المكسوّ بالشعر كان يدلّ على أنّه إنسان متوحّش . وقدّموا له خبزاً وحليباً ليروا كيف

يكون تصرّفه بإزائهما. وعرف « أنكيدو » أنّ الذي وُضع أمامه إنّما هو طعام : الحليب عرفه من لونه ورائحته ، غير أنّه كان جاهلاً بالخبز لأنّه يراه للمرّة الأولى . وظلّ ينظر إلى الاثنين متردّداً محتاراً ولم يطعَم أحدهما، لأنّه لم يَعْتَدْ شرب الحليب إلاّ مصّاً من الأثداء، ولا أكل يوماً طعاماً يجهله .

فقالت له المرأة بتودُّد وهي تقدّم له الخبز والخمرة :

ـ كُلْ هذا الخبزَ يا « أنكيدو » ، إنّه قوام الحياة . وإذا كنت لا تحبُّ الحليب فاشرب من هذه الخمرة المنعشة . فالعادة هنا أن يقدَّم هذان الصنفان للضيوف .

فاطمأنّ « أنكيدو » لأقوالها ، فطَعِم من الخبز واستساغه ، وعلّ من الخمرة القويّة فجُنّ بها جنوناً . وأقبل على الاثنين بنهمه المعهود حتى ارتوى وانتشى ، والرعيان من حوله يضحكون ويعجبون من قابليّته. من الخمرة وحدها شرب سبعة قِرَب . وانتظمه الحبور والانشراح ، ورقص قلبه من الطرب ، والتمع وجهه . ثم اغتسل ودهن جسمه بالزيت وصار إنساناً سويّاً .

وحين تدثّر بالثياب وخرج للرعيان بهندامه الجديد ظُنّ عروساً في ثياب عرسه .

وتقلّد « أنكيدو » السلاح القاطع ، وأخذ بعد ذلك يطارد الأسود ، ويصطاد الذئاب ، فيردّ غائلتها عن القطعان ، ممّا جعل الرعيان يهناون بالنوم ليلاً وينعمون براحة البال نهاراً .

وهكذا بات « أنكيدو » ، الذى لا نِدّ له في القوّة والشجاعة ، حارس الرعيان وحامي قطعانهم ضدّ الوحوش الكاسرة . وكان سعيداً بحياته الجديدة .

« أنكيدو » يتحدى « جلجامش »

وبينما « أنكيدو » يقوم ذات يوم بحراسته على جاري العادة ، وزوجُه « تامار » جالسة بقربه تتأمّله وتتملّى من رجولته ، إذا برجل غريب يقبل صوبهما وقد بان عليه الإعياء الشديد من طول السفر .

فقال « أنكيدو » « لتامار » :

ــ « تامار » ، أسرعي إلى هذا الرجل واطلبي إليه أن ياتي إليّ . أريد أن أعرف سبب مجيئه .

ولمّا أتت بالرجل الغريب سأله « أنكيدو » :

ــ ما الذي أتى بك إلى هنا أيّها الرجل ؟ إنّك ، ولا شكّ ، آتٍ من مكان بعيد ، فمشقّةُ السير الطويل بادية على وجهك .

ــ أجل يا سيّدي ، أنا قادم من مكان بعيد . ومن

يهرب من مكان بعيد لولا الجور والظلم ؟ إنّ « جلجامش »، يا سيّدي، قد طغى وعاث الفساد في الشعب ، فاستباح المحرّمات واعتدى على الحُرُمات . وقد لبّى الشعبُ بأسره دقّات طبله .

ـ وماذا يبغي من الناس بدقّات طبله ؟

ـ يريدهم أن يجتمعوا حوله ليلبّوا طلبه .

ـ وما طلبه ؟

ـ أن يتزوّج كلّ ليلة عروساً . إنّه يدّعي أنّ ذلك حقٌّ شرعيّ له منذ أن وُلد .

ـ والشعب ، هل يقرّ له بهذا الحقّ ؟

ـ ألشعب يقرّ له بذلك على مَضَض . ألشعب أعمى يا سيّدي ، بلا وعي ، يؤخذ بالتُّرّهات ، تجوز عليه الأباطيل . وهو يعتقد أنّ هذه إرادة الآلهة وحكمها الذي لا يُردّ !

وامتُقِع وجه « أنكيدو » لدى سماعه هذا الكلام، وطمأن الرجل قائلاً :

ـ سأذهب في الحال إلى حيث يبسط الطاغيةُ « جلجامش » سلطانَه على الشعب ، ولسوف أتحدّاه بقوّة وأصرخ عالياً في « أورخوي » : « أنا أنكيدو قد أتيت إلى هنا لأبدّل النظام القديم وأغيّر الوضع القائم ، لأنّي أنا الأقوى هنا » .

ووطّد « أنكيدو » العزمَ على ترك حياة الرعيان إلى الأبد ، والتوجُّه إلى « أورخوس » لوضع حدٍّ لمطامع « جلجامش » . لقد حزّ في نفسه وهاله، هو الذي عايش الحيوان وعرف طباعه ، أن يرى إنساناً بين الناس ، لا بل ومليكاً لهم وُهب الحكمةَ والتعقُّل، يبزّ الحيوانات بشرّه وشراسته .

★

وهكذا سار « أنكيدو » إلى « أورخوي » ، وخلفَه « تامار » تتأثّره مشفقة وخائفة عليه من «جلجامش »،هي التي جاءت بإيعاز منه لتصطاده ، ولتوهن قواه، وتقدّمه له إنساناً مستضعفاً ذليلاً . لقد كبر في عينيها بلحظة

الإنسانُ المتوحِّش، وصغر المليك الحكيم الطاغية .

كان برج الإله «آنو» يَشرئبُّ بحركة مفاجئة من وسط أسوار «أوروخوي» العالية؛ وكانت طبقته العليا المذهبَّة تعكس نور الشمس ساطعاً وهّاجاً في ذاك الصباح، حين دنا «أنكيدو» من المدينة المحصَّنة . وهالته هياكلها وقصورها، وارتفاع أسوارها، وتساءل بينه وبين نفسه : أيكون مليكها عظيماً مثلها وهائلاً ؟ وتهيّبه في قرارة نفسه . إلاّ أنّه، حين سار في أسواقها ورأى رجالها أناساً عاديّين كجماعة الرعيان الذين عاشر، راح يتبختر في شوارعها متباهياً مختالاً بقامته الماردة ورجولته . ولكنّه وقف خاشعاً متهيّباً أمام معابدها التي تحرس أبوابَها العمدُ وتماثيلُ وحوش مرعبة لم يرَ لها مثيلاً في غابه . وحين بلغ الساحة الكبرى تجمهر حوله الناسُ فرحين جذلين، وكانوا قد سمعوا به، كأنمّا السماءُ هي التي أرسلته لهم محرّراً ومنقذاً في ساعة ابتهال وصلاة .

واستبدّت بهم الفرحةُ، وسرت بينهم تمتماتٌ ووشوشات :

– لكانه أحد الآلهة .

– إنّه قرين «جلجامش» ومثيله الأوحد .

– ولكنّه أقصر منه قليلاً .

– إلاّ أنّه أقوى عظماً وأخشن هيكلاً .

– ثم فهذا فتى الجرود وربيب البراري .

– ولا تنسَ أنّه عاش على لبن الضواري .

– لقد وَجد «جلجامش» أخيراً نظيرَه وندّه .

– بيد أنّ هذا سيعرّفه، ولا ريب، حدّه .

وكان في «أوروخوي» عِيدُ «أشخارا» المقدّس، أو «عشتار»، إلهة الحبّ . وكان احتفال مهيب بالزواج المقدّس، زواج الكاهنة التي تقوم بدور «عشتار» فتتزوّج بملك البلاد ضماناً للخصب والإنسال .

وفي هيكل الحبّ انتظرت العروس قدوم عروسها . وفي موهنٍ من الليل استيقظ «جلجامش»، الذي يمثّل دور العروس، ويمّم شطر الهيكل لملاقاة عروسه . فنجم

أمامه « أنكيدو » يعترضه ويسدّ أمامه الطريق . ولم يأبه
له « جلجامش » أوّلَ الأمر ، فحاد عن دربه ، وجاوزه ،
وتابع طريقه . وحين همّ بدخول الهيكل كان «أنكيدو»
قد سبقه إلى الباب بوثبة سريعة ، وثبّت رجليه على عتبته،
وبكتفيه العريضتين وجسمه الوحشيّ انتصب واقفاً أمامه،
وجهاً لوجه ، يمنعه من الدخول .

وظنّ « جلجامش » أنّه إزاء متطفّل مغرور جاء
يغتصب حقّه في هذا الزواج . ثم تذكّر فجاة يوم وقف
مثل هذه الوقفة بالذات في وجه الملك « انمركار » وكيف
قتله. وخاف أن يلقى هو المصير نفسه . وتماسكا ، واشتبكا
في صراع مهول كثورين وحشيّين ، استعملا فيه الأيدي
والأرجل وكلّ حيل المصارعين والملاكمين والمقاتلين وعنفهم.
كيف لا والاثنان جبّاران ، خبيران عنيدان بفنون القتال
والنزال ؟ فتحطّمت من عنف صراعهما قوائمُ الأبواب ،
وارتجّت جدران الهيكل ، وإلى الساحة العامّة تناهى
خوارُهما . وأجفل النائمون في « أورخوي » ، واستيقظوا
مذعورين ، واجفين ، ظنّاً منهم أنّ زلزالاً ضرب

حاضرتهم المقدّسة ، أو أنّ « الفرات » انتفض وفاض
وتسنّم أسوارها ليبتلعهم .

ودام صراعهما حتى مطلع الفجر ، حين ثبّت
« جلجامش » ، في حيلة بارعة ، قدمه في الأرض ، وثنى
ركبته ، وباستدارة مفاجئة خاطفة رمى « أنكيدو »
أرضاً . وعلى التوّ هدأت ثورته ، ولم يشأ أن يُجهز
على خصمه .

وخاطبه « أنكيدو » وهو ملقى على الأرض :

ـ غلبتَني يا « جلجامش »، أنا الذي غلبت الأسود
والنمور ! حقّاً لا نظير لك في الأرض يا من ولَدَته « ننسون »
القويّة كبقرة وحشيّة . وها أنت ذا الآن تسمو فوق
سائر البشر ، إذ وهبك الإله « أنليل » الملكَ والسلطان ،
لأنّ قوّتك فاقت جميع الرجال .

وتعانق الاثنان وتصافيا وتصادقا، فتحقّق بذلك حلمُ
« جلجامش » ، وصدقت تفسيرات أمّه « ننسون » له .
وصارت صداقتهما بعد ذلك مضرباً للمثل ، حتى قيل:
« صديقان كجلجامش وأنكيدو » .

لهوٌ مِن نوعٍ جديد

وما إن تمكّنت عرى الصداقة بين « جلجامش » « وأنكيدو » ، حتى بات ربيبُ البراري والغابات يلازم عاهل « أورخوي » ملازمة ظلّه : فيشاركه في لهوه وعبثه ، ويجلس معه إلى مائدة الشراب والطعام ، يسهر معه ، يتنقّل معه ، يلعب ويتصارع معه ؛ حتى إذا وقف على مواطن ضعفه وقوّته ، ونزواته وعوائده ، بدأ يبثُّ فيه شيئاً من روحه هو .

فقال له « أنكيدو » ذات يوم بعد أن فرغا من تناول الطعام :

ـ ألم تسأم يا « جلجامش » حياتك الرخوة السهلة هذه ؟

وقال « جلجامش » ضاحكاً ، وهو الذي لا تفوته فكرة أو إشارة من صديقه :

ـ لا ، بل يظهر يا عزيزي أنّك أنت لم تبقَ تطيق الحياة الجديدة في مدينتنا . إيه « أنكيدو » ، أرى أنّ روح البراري قد استيقظت عندك من جديد !

ـ وهل في الدنيا أروع منها يا « جلجامش » ؟ أن تستيقظ مع الفجر ، وتستقبل الشمس الطالعة في موكبها العظيم خلف الغابات والجبال العالية ، ثم تعبّ بملء رئتيك أنفاسَ الصباح المرطّبة بالطّلّ الفضيّ ، المعطّرة بالزعتر والحبق والبيلسان ، ثم تمشي ، تمشي يا « جلجامش »، وتقفز ، وتركض ، وتطير خلف طرائدك في كلّ مكان . لقد كدت ، وحقّ آلهتك ، أنسى حتى المشي في « أورخوي ».

وارتجّت جدران القصر لقهقهة « جلجامش» الذي ما لبث أن عاوده وجومه ، فقطّب واستغرق في صمت

طويل . ثم رفع رأسه وقال بألم بادٍ :

– صحيح أيّها العزيز « أنكيدو »، فما في « أورخوي» غير ضيق الجدران والأزقّة ، وظلمة المعابد والقصور . ما في « أورخوي » غـــير العبث واللهو والهواء المفعم بأنفاس المجون . ما في « أورخوي » غير الملل والضجر .

ومنذ ذلك اليوم بدأ «جلجامش» يتحرّر شيئاً فشيئاً من جنون لذّاته ليبلى بجنون من جنس آخر ، كما توقّع « يمّا » شيخُ حكماء « أورخوي » السبعة ، إذ بدأ يمارس القنص كلّ يوم مع « أنكيدو » ، فيخرجان معاً في باكر الصباح ، ويغيبان أحياناً أيّاماً عديدة يمضيانها في الغابات والبراري، وإذا عادا إلى المدينة فمنهوكي القوى ، مخموري الجسم ، يَنشدان الراحة بالطعام والنوم .

وهكذا تنفّست «أورخوي» الصُّعَداء .

وذات يوم، والصديقان في الغابة يرقبان من مكمنهما أسداً بطّاشاً بعث الهلع والهول في قلوب الرعيان وسكّان المزارع المجاورة ، التفت « جلجامش » ، وقد بان عليه الإعياء والسأم ، إلى صديقه :

– إيه «أنكيدو » ، أين أنا الآن وأين كان يجب أن أكون لو لم أكن معك ! لقد كنتُ يا صديقي ، فيما مضى ، مصّاصاً للدماء ، وعنكبوتاً سامّة هائلة تنصب شباكها في زوايا « أورخوي» . وما كنت لأشبع من اللذّات وما كنت لأرتوي، وكنت أدرك أنّ شعبي ، مع حبّه العظيم لي ، ناقم عليّ في قرارة نفسه ، ويبيّت لي الشرّ في السرّ . أمّا اليوم فقد انقلبت إنساناً آخر بفضلك يا صديقي ، كما انقلبت أنت على يد الراقصة « تامار » . وقد بتّ أؤثر العيش معك على العيش مع أجمل نساء « أورخوي » . «أنكيدو »، ما رأيك بصيد يخلّد اسمينا في سجلّ الخالدين ؟

وقهقه « أنكيدو » وقال بسخرية :

– صحيح أنّ الإنسان عندما يزهد باللذّات يَنشد المجد ويفكّر بالخلود .

– ولكنّه خلود لم يحلم به رأسُك المتوحّش ، ومجدٌ هيهاتِ أن يدركه الفانون أمثالك !

– وهل ثمّة مجدٌ أسمى وصيد أسمن من هذا الأسد اللعين؟

— ثمّة في المدى البعيد يا « أنكيدو » مخلوقٌ جبّار ، ومارد متوحّش ، يرجف لهوله الناسُ والضواري على السواء .

وتأوّه « أنكيدو » وابتسم ابتسامةً حزينة ، هو الذي خبر الغابات ولم يَفُتْه خبرٌ عن وحوشها الضارية .

— تقصد المارد « خمبابا » ؟

— هو بعينه .

— ولكنْ أهونُ عليك صيد النجوم من صيد المارد « خمبابا » .

— من زمن بعيد وأنا أتوق إلى مثل هذه المغامرة . ما الحياة العريضة بدونها ؟ إن هي إلاّ موتٌ بطيء يا صديقي . تريدني أن أظلّ رهين قصري طوال العمر ؟ ما الذي جعلك تترك الغاب وأنت سيّده وإلهه ؟ أليس في سبيل اكتشاف شيء جديد ولو على حساب حرّيتك وحياتك ؟ أليس لإشباع هذا النهم الذي في نفسك

يا « أنكيدو » ؟ بلى ، لقد عزمت أن أصيد هذا المارد المتوحّش ، وإنّي لَصائده .

ودمع « أنكيدو » ، هو الذي لم يدمع في حياته . مرّات كثيرة مرض ، وجرح ، وتسمّم ، فلم تندّ عنه صرخةُ ألم ، أو يتندّ له جفن . وظنّ « جلجامش » أنّ حياة المدينة هي التي رقّقت عواطف صديقه ، فقال له:

— أراك خفت يا « أنكيدو » ، وملأ الحزنُ قلبك كما ملأت الدموع عينيك ، لمّا لفظت اسم المارد «خمبابا».

— ومن لا يخاف المارد ذا الهيئة المرعبة ، الذي هديرُه كسيل العاصفة وزمجرتُه كعباب الطوفان ، المارد الذي تنبعث من شدقه النيرانُ والموت الزؤام ؟ ثم فهذا المارد يسكن في غابة الأرز العظيمة . الإله « أنليل » نفسُه عيّنه حارساً لها، وقد سلّحه بقوى الرعب السبع . وإنّه يحرس ليلَ نهارَ مداخلَ الغابة ومخارجها من المتطفّلين أمثالك... لا ينام أبداً ، ولا يفوته حسٌّ في أعماقها . ثم تعرف كم تبعد الغابة عن « أورخوي » ، وما مداها ؟ أنا الذي

اكتشفتها حين كنت أهيم على وجهي مع حيوانات البراري . لا ! ما من أحد يجرؤ على الإيغال في أعماقها .

ـ أعرف ذلك يا « أنكيدو » . حكماء « أورخوي » خبّروني عنها الشيء الكثير. أجدادنا قبلي حاولوا ارتيادها وقطع أرزها ولم يَعُدْ منهم أحد . ومع ذلك فقد عقدت العزم ووطّدت النيّة على أن أجوسها ، وأقتل ماردها ، وأزيل شرّه من الأرض .

ـ ولكن هل تعرف أنّ ما من مخلوق يستطيع تسنّم السماء ؟

ـ وأعرف أنّ الآلهة وحدها تعيش مع « شمّش » الممجّد .

ـ بينما نحن فأيّامُنا معدودة على الأرض ، وقبضُ ريحٍ همومُنا فيها، وعَبَثٌ بعبث. بالحقيقة يا «جلجامش» إنّني أخاف مرافقتك في هذه الرحلة .

ـ إذن سأقوم بها وحدي. لا خوف حتى إذا متّ. تركت خلفي اسماً خالداً ، وقال الناس عنّي ...

ـ قالوا عنك : « قضى جلجامش وهو يصارع خمبابا المتوحّش» !

ـ يكفي أن يردّد أولادي اسمي فيما بعد، ويتذكّروه إلى الأبد .

وتهدّج صوت « أنكيدو » من جديد، وغشيتْ مسحةٌ من الكآبة تقاسيم وجهه الوسيم ، وقال :

ـ إيه « جلجامش» ، فلَئِن أعطاك أبو الآلهة السلطانَ على الناس جميعاً ، إلاّ أنّه لم يمنحك الخلود . هذا هو قدرك . فلا يُحزِنكَ القول ، ولا يكدّرك. لقد وهبك القدرة لتنتصر ، والضعفَ لتنكسر . لتكون للناس النورَ والظلمة في آن معاً . ولقد آثرك بالتفوّق على الجميع ، ومنحك النصرَ في المعارك حيث لا مَنجاةَ لفارٍّ من وجهك . فحذارِ أن تفرط يا صديقي في قدرتك . احكم رعيّتك بالعدل في مملكتك ، وأمام إلهك «شمّش» .

وبينما « أنكيدو » يخاطب « جلجامش » بهذه الأقوال ، كان هذا منصرفاً بكلّ فكره إلى جبل الأرز الخالد . ثم قال « لأنكيدو » :

ـ أنا لم أدوّن حتى الآن اسمي على الطّين المجفّف مع الخالدين ، لكنّي سأسجّله في المكان الذي سُجّلت فيه أسماؤهم . وسوف أرفع هيكلاً للآلهة حيث لم يُكتب إلى الآن اسمُ إنسان قط .

ـ وأنا يا صديقي لست بخائف كما تظنّ ، وليست « أورخوي » هي التي ميّعت عواطفي . وإنّما قواي وهنت مع الأيّام ، وزايل ساعديَّ عزمُها القديم . كما إنّ الحزن أخذ بخناقي غارزاً شوكه في حلقي . ولكنّك ما دمت قد نويت القيام بهذه المغامرة الكبرى ، فأنا رفيقُك فيها حتى الموت ، لأنّه يصعب عليّ مفارقة صديقي في ضائقته، أنا الذي شاركته كلّ هذه المدّة في هنائه وسعادته. غير أنّي أنصحك قبل أن تَلِجَ تلك الأرضَ المحرّمة على المائتين ، أن تسأل أوّلاً الإله « شمّش » ، فثمّة الأرضُ أرضه ، لأنّه حيثما يُقطع الأرز فهو ملك أبديّ له .

المجلسُ شورى

وقبل أن يقوم « جلجامش » بمغامرته الكبرى إلى غابة الأرز ، والتصدّي لماردها « خمبابا » ، عقد في قصره مجمعاً للشورى ضمّ كبارَ قادته والحكماء السبعة، وجميع كهنة معابد الآلهة : « آنو » كبير الآلهة ، و« شمّش » إله الشمس ، و « أشخار » إلهة الحبّ والخصب ، و« أدد » إله الرعود والأمطار ، و « أورورو » الإلهة المبدعة ، و« ننورتا » إله الحرب ، و«نصابا» إلهة الغلال والحبوب، و « سموقان » إله الماشية ، والإلهة « ننسون » أمّ « جلجامش» ، وغيرها . ولمّا اكتمل النّصاب وقف « جلجامش » ، بقامته المهيبة وطلعته البهيّة ، كأنّه الإله « آنو » ذاته ، وخاطبهم قائلاً :

— إنّني لم أشأ القيام بهذه المغامرة دون استشارتكم . إنّكم إلى الآن لم تعصوا لي أمراً ، ولم تخالفوا رأياً ، ولم تردُّوا مطلباً مهما كان. وكنتم لي النصحاء الأمناء والأصدقاء الأوفياء في الأيّام السعيدة كما في أيّام الشدّة والأزمنة العصيبة . إعلموا يا أصدقائي أنّني لست أبغي من وراء هذه المغامرة المجدَ فحسب ، وتسجيل اسمي مع الخالدين ، وإن كان هذا مطمحي وحلمي الأكبر . إنّ لي غاية أخرى طالما راودت فكري وفكركم وأحلامي وأحلامكم ،وهي الحصول على خشب جميل صلب صقيل نبني به قصورنا وهياكلنا وبيوت الشعب ، خشب لا يفسده السوسُ ولا يطاله البلى . ومثل هذا لا يتوافر لنا إلاّ في خشب « الأرز » . وإنّي أعدكم ، يا كهنة « أورخوي » وحكماءها ، بأنّي ، إذا منحتني الآلهة النصرَ على المارد «خمبابا » ، لأقطعنّ من خشب الأرز ما يكفي لجعل « أورخوي » أعظم المدن . لأجعلنّ ، وحقّ الإله « شمّش »، هياكلَها وقصورها وسائر منازلها تتحدّى الفناء ، ولأرفعنّ رؤوسها حتى تنطح السماء .

وصفّق الجميع طويلاً « لجلجامش » ، وقد أُخذوا بسحر كلماته وبهاءِ طلعتـه ، وتمنَّوا له النصر من كلّ قلوبهم على مارد الأرز ، ودوامَ السؤدد على عرش « أورخوي » . لا بل أجزلوا له النصحَ مخلصين ، هم الذين شاؤوا في ما مضى أن يوقعوا به ويدفعوه دفعاً إلى هلاكه في مغامرة مماثلة. فانبرى شيخ الحكماء « يمّا » ، و «زاديق» رئيس كهنة الإلة « آنو »،يتسابقان في إسداء النصح للعاهل المعظّم .قال « زاديق » :

— أمّا وقد شئت القيام بهذه المغامرة يا «جلجامش» ، فالرأي رأيك أوّلاً وأخيراً . إلاّ أنّني آمل أن تقبل منّي هذه النصيحة : حرامٌ على المرء أن يغامر بنفسه في مثل سنّك . . . إنّك ما تزال في ريعان الشباب يا ولدي .

وتلعثم حين لفظ كلمة « ولدي » ، لأنّه تذكّر في تلك الساعة ولدَه ! وكانّ « جلجامش » عرف ما يعتمل في قلب الكاهن الأكبر وما يدور بخلده ، فأطرق صامتاً لئلاّ يُربكه بنظرته الفاحصة التي تسبر الأعماق .

وتابع الكاهن الأكبر ، وقد زايله حزنه للحظات ، ووضحت رؤيته :

– ألا إنّك يا « جلجامش » ، دون شباب الدنيا ، فقتَ الجميع بشجاعتك وقوّتك ورجاحة عقلك. لذلك لا أستطيع أن أقول إنّك لا تقدِّر عواقب الأمور وما خلف هذه المغامرة من مخاطر جمّة . ولكنّ شيئاً واحداً أنصحك به : فمهما بلغت قوّتك لا تتّكل عليها وحدها . إسْتَعِنْ بالآلهة ، وخذْ من صديقك « أنكيدو » نصيراً لك في الطريق ومرشداً ودليلا ، لأنّه عارفٌ بمسالك الغابات والجبال وشعابها الصعبة ، فضلاً عن أنّه خبير بالقتال . وغسى الإله « آنو » يمهّد أمامكما مسالك الجبال الوعرة ، وتأتيك مفاجآت الليل بما يفرح قلبيكما .

وثنّى الشيخ « يمّا » على كلام رئيس الكهنة، وزاد قائلاً :

– إجعل « أنكيدو » يسير دوماً أمامك ، لأنّه ، كما قال رئيس كهنتنا الأكبر ، يعرف الطريق إلى غابة الأرز . ثم فمن يسير في المقدّمة يحمي الذي خلفه . دع

« أنكيدو » يتقدّمك دائماً ، وليكن لك بمثابة حواسّك، لأنّ الإلهة « أورورو » سلّحته بحسٍّ الغاب الذي تفتقر أنت إليه . فهو يتنبّه للأخطار ، ويتدارك الأمور قبل وقوعها ؛ يتنسّم الفِخاخ من بعيد، أذنه تلتقط أقلّ حسّ ، وبصرُه الحديدُ يخرق عتمة الليل وكثافة الأدغال. وكان الإله « شمّش » بعونك يا ولدي، وأنار لك الطريق .

وختم قائد الجيش المجلسَ بقوله :

– أمّا أنا فانصحك بان تتسلّح بسلاح قويّ ،بسيوف وفؤوس ثقيلة قاطعة . ولا تنسَ أن تتجهّز بالماء دائماً ، لأنّ طريقك طويل محفوف بالمخاطر ، ورحلتك شاقّة مرهقة . لا تجعل قربتك تخلو من الماء . ماءً نقيّاً املأها حيثما وجدته . أروِ عطشك بالماء البارد ، وقدّم منه للإله « شمّش » ، وردّد دائماً ذكر إلهك الحارس « لوكال بندا » زوج والدتك . حرستك الآلهة ، وأرجعتك إلينا سالماً .

صلاة للآلهة

وفي صباح اليوم التالي قصد « جلجامش » معبد الإله « شمّش » وهو يحتضن جدْيين، الواحـــد ناصع البياض لا أثر لبقعة عليه ، والثاني بنيّ اللون. إنتصب في الهيكل بقامته الفارعة أمـــام الإله ، وبيده صولجانٌ فضيّ ، وخاطبه قائلاً :

ـ أيّها الإله «شمّش»، أنا ذاهب إلى ذلك الموطن البعيد، إلى غابة الأرز أنا ذاهب أيّهـــا الإله ... وإنّي أضرع إليك بأن تصون روحي من الهلاك ، وتعيدني سالماً إلى ميناء «أورخوي»... أيّها الإله العظيم إنّني أتوسّل إليك طالباً حمايتك ... إجعل فالي حسناً أيّها الإله ...

وأجاب « شمّش » المجّد :

ـ إنّك لقويّ يا « جلجامش» ، ولكن ماذا يعني

لك موطنُ الحياة ، وما قصدك من السفر إليه ؟

وعند ذلك رفع «جلجامش» إليه عينيه وقال :

ـ إيه أيّهـــا الإله « شمّش » ، اسمعني واستجب دعائي . فهنا، في المدينة ، يموت الإنسان والغصّة في قلبه، يموت وفي قلبه اليأس والقنوط . وثمّة ، خلف أسوار « أورخوي » ، رأيت الجثث تطفو على وجه النهر ، وأنا أعلم أنّه مهما مدّت الآلهة في عمر الناس وَطولهم وقدرتهم فلن يدركوا السماوات ... لا ، ولن يحيطوا بالأرض . ولذلك عزمت على ارتياد ذلك العالم الغريب ودخولِ غابة الأرز المخيفة ، لأنّني ، أيّها الإله « شمّش » ، لم أنقش على الفخّار اسمي بين الخالدين . ولَسوف أجوس ذلك الوطن حيث يُقطع الأرز ، فأحفر اسمي حيث سُجّلت أسماء الخالدين ، وأرفع هيكلاً للإله حيث لم يُكتب اسم إنسان قط .

وتابع « جلجامش» ضراعته ودموعه تملأ وجهه :

ـ رُحماك أيّها الإله « شمّش ». إنّها لرحلة طويلة هذي

التي أقوم بها إلى أرض المارد « خمبابا » . وإذا كان مقدَّراً لي أن أخفق في مهمَّتي فلماذا تبثّ فيّ هذه الرغبة الملحّة لأدائها ، هذه الرغبة التي تحرّم عليّ الراحة قبل أن أنجزها ؟ ثم أنّى لي أن أفوز بمرامي إن لم تكن أنت عوني ؟

« أمّا إذا قُيِّض لي ، يا إلهي ، أن أموت في ذلك البلد البعيد ، فإنّني أموت دونما أيّ حقد أو موجدة . ولكنّي، إذا عدت منه بسلام ، فسوف أرفع لك الصلوات في هيكلٍ أبنيه لك من خشب الأرز يطال السماء ».

وسرّ الإله « شمّش » لتضحية الدموع التي سكبها « جلجامش » أمام مذبحه ، وقَبِل صلواته. وأظهر له الإله العظيم عطفه ومرضاته، فمدّه بحلفاء أقوياء في قتاله ضد المارد «خمبابا» . مدّه بأبناءَ ثمانيةٍ من أمّ واحدة أسكنهم كهوف الجبل ، هم الرياح العاتية الآتية : ريح الشمال ، والريح المزوبعة ، والريح العاصفة الجليديّة ، والريح العاصفة المحرقة، والرياح العظيمة ، والسامّة ، والعاصفة

الهوجاء ، والإعصار المجنون ... ومثل الأفاعي ، ومثل التنانين ، مثل النار المتأجّجة ، مثل حيّة تجلّد القلب ، وطوفان مدمّر ، وألسنة البرق الملتهبة ، هكذا كان حلفاء « جلجامش » الذين جهّزه بهم الإله « شمّش » .

وكان فرح « جلجامش » بحلفائه عظيماً .

عدّة "جلجامش" الحربيّة

ثم أمر « جلجامش » صانعي الأسلحة ، والصاغة ، والحدّادين ، بإعداد عدّة حربيّة لم يُصنع مثلها من قبلُ ، بمتانتها وجودتها وجمال سبكها وصياغتها ، عدّة تصلح لمنازلة خصم مهول كالمارد « خمبابا » .

فشمّر أصحاب الحرف عن السواعد لصكّ السيوف والفؤوس والسهام الرائشة . وقامت فرق الحطّابين تجوس الغابات والأودية بحثاً عن جذوعٍ من الزان والحور والصفصاف يصلح خشبها لمقابضها ومسكاتها .

وضجّت «أورخوي» من أقصاها إلى أقصاها بالأوامر ،

وغناء العمّال ، وأزيز النيران في مجامر الطين الهائلة ، وشخير منافخ الحدّادين وصوت مطارقهم على السنادين . وبلغ لهب الأكوار عنانَ السماء ، وانتشت « أورخوي » بالدخان ورائحة المعدن المصهّر .

وصُبّت « لجلجامش » و « أنكيدو » فؤوس وسيوف قاطعة ، صقيلة ، وثقيلة جدًّا لا يقوى على رفعها أقوى الرجال ، إذ إنّ مقابضها كان يزن الواحدُ منها ثلاثين رطلاً . وأُطلق على فأس «جلجامش» اسم «عزم الأبطال» ، وعلى قوسه « قوس أنشان » .

وفي الساحات العامة ، والطرق ، أخذ الصبيان ، الذين سمعوا من آبائهم وأمّهاتهم بمغامرة «جلجامش» وصديقه « أنكيدو » ، يمثّلون دور البطلين في مبارزتهما مع المارد المتوحّش ، مستعملين العِصيّ والقضبان سيوفاً وفؤوساً . فكانوا على التوالي « جلجامش » ، وكانوا «أنكيدو » ، وكانوا المارد «خمبابا » . وكم من صِبيّة انهالت عليهم ضربات البطلين « جلجامش » و « أنكيدو » ، فتركوا الساحة ممزّقي الثياب ، مجروحين ، يبكون ويولولون

لقيامهم بدور نافث اللهب « خمبابا » !

★

كان الصباح قد هلّ حين تدفّق أهل « أورخوي » من بوّابتها العظيمة ذات المزاليج السبعة ، ليشهدوا الجبّارين « جلجامش » و « أنكيدو » في حلّتيهما الحربيّتين المجيدتين ، ويمتّعوا النظر بأسلحتهما البراقة .

ووقف « جلجامش » في وسطهم يخطب فيهم ، وقد أخذ بيمينه فأسه الجبّارة ، وتمنطق بسيفه ذي القراب الذهبيّ . وبانت السهام من جعبته خلف ظهره ، حادّةً

أهبة الرحيل لنشهد ذلك المخلوق العجيب الذي بات اسمه على كلّ لسان وملأ هوله الدنيا . ولسوف أهاجمه في غابه حيث خشب الأرز الثمين، وأريه بأس أبناء «أورخوي» ، لتلهج بذكره الأجيال على مرّ الزمن . إنّها السماء انتدبتني لركوب هذه المخاطر ، فاتسلّق الجبل الشامخ ، وأقتل المارد الجبّار وأزيل شرّه من الوجود . إنّها الآلهة أهابت بي وبصديقي « أنكيدو » للقيام بهذه المهمّة لنغني « أورخوي » بخشب الأرز الذي لا يثمّن .

وصفّق الشعب « لجلجامش » وانهالت عليه الأسئلة من كلّ جانب :

متى ستعود إلينا يا « جلجامش » ؟

قتل المارد « خمبابا »

أفاق « جلجامش » على نداءات رفيقه وتوسّلاته المتكرّرة الملحّة ، فاذهله السكونُ الراني في المكان ، ورؤيةُ « أنكيدو » قاعداً قبالته القرفصاء ، وعجب لنفسه كيف استسلم للنوم دونما وعي منه وإرادة ، وعلى مقربة من عرين المارد ، وكاد لا يصدّق نفسه :

ـ أصحيحٌ يا « أنكيدو » أنّني نمت كلّ هذا الوقت ، وفي هذا المكان بالذات ؟ اعذرني يا صديقي لأنّي عرّضتك ونفسي للخطر ... ولكن كيف حدث هذا كلّه ؟

ـ أنا أيضاً لا أعلم ، لعلّ للآلهة في ذلك قصداً ...
ثم نهض « جلجامش » استعداداً للقتال ، وتدثّر

بثوبه المعدنيّ الخفيف الذي يسمّى « درع الأبطال » ، ولفّه جيّداً حول صدره وجسمه كلّه وقاية من براثن المارد « خمبابا » وأنيابه الحادّة ... ومثله فعل « أنكيدو » ، ولكن بتردّد ظاهر .

فقال « جلجامش » وهو يباعد بين قدميه اللتين ثبّتهما في الأرض ، وهو يصرف باسنانه ، ويكرّر القول ويشدّد عليه كي يبثّ العزم في صديقه :

ـ أستحلفك يا « أنكيدو » بحياة أمّي « ننسون » وأبي « لوكالباندا » ، بأن تبقى معي حتى نقتل هذا الرجل ، إذا كان حقّاً رجلاً ، أو هذا الإله أو الوحش ، إذا كان إلهاً أو وحشاً حقّاً . فأحقّق بذلك أمنيّتي ، وأظلّ فخراً للأمّ التي ولدتني ، كما كنتُه يوم رعتني في حضنها .

فأجابه « أنكيدو » ، الصديق الوفيّ ، بالقول الذي طالما ردّده على مسمعه :

ـ إيه سيّدي ومليكي ، كم وكم حذّرتك من هذا

المخلوق المتوحّش ... إنّك لا تعرفه يا « جلجامش » ، لذلك لا تهابه . أمّا أنا الذي ربيت بين الوحوش فأعرفه جيّداً ، و كلّما فكّرت بهذه المغامرة التي نقوم بها ارتعشت أطرافي . إنّ مجرّد ذكر اسمه وحده يبعث في قلبي الهلع . إنّ نظرة منه واحدة لكفيلة بأن تيبّس أشجار الغاب وتجفّف مياه المستنقع في آن معاً . ويحزّ في نفسي ، يا أعزّ الأصدقاء ، أن أتركك وحدك هنا عرضةً لشرّه .

ـ تتركني وحدي؟ أجادٌّ أنت في ما تقول يا « أنكيدو »؟ تتركني وحدي بعد أن غامرنا الأهوال، وقطعنا المسافات الشاسعة، وحطّمنا بفؤوسنا بوّابة الأرز العظيمة، وصرنا على باب عرين المارد ؟

ـ أجل ، لقد وطّنتُ العزم على تركك في اللحظة الأخيرة . وباستطاعتك أن تمكث هنا وحدك إذا شئت ، أو أن تبارح المكان مثلي على عجل ، لأنّني ، في كلّ هنيهة ، أتنسّم الخطر الداهم وأتوقّع الهلاك المحتوم . أجل يا « جلجامش » ، لقد عزمت على العودة إلى « أورخوي » بأيّة حال. وسوف أخبر والدتك عن أعمالك البطوليّة

المجيدة لتزغرد لك من الفرح .

ـ تسخر منّي يا « أنكيدو » ؟

ـ وطبعاً ساقصّ من ثمّ عليها كيف كان موتك المجيد عقب فتوحاتك الباهرة ، لتبكيك حتى تجفّ الدموع في عينيها .

ـ إسخر منّي ما طاب لك أن تسخر . ولكن اعلم أنّ ساعتي لم تحن بعد حتى تقدّم من أجلي الذبائح ، وأن قارب الموت لن يسير بي نحو الأعماق . كما إنّ كفني لن يفصّل منذ الآن ... بلى ، يا صديقي ، أنا أعلم أنّ الموت لا بدّ منه إن آجلاً أو عاجلاً ، أمّا الآن فانا أحوجُ ما أكون إلى زندك يا ربيب البراري . مدّ لي يدك لأمدّ لك يدي ، وما من قوّة بعد ذلك تستطيع الوقوف أمامنا نحن الاثنين. ألا أبعِدْ الخوف عن قلبك يا « أنكيدو » ، وأمسك بفاسك بقوّة وباس ، واهجم معي ، لأنّ من لا يحارب حتى النهاية يفقد النصر والسلم معاً .

وما أتمّ « جلجامش » حديثه حتى أجفلت غابة

الأرز المقدّسة على زمجرة المارد « خمبابا » ، وزلزل الجبل تحت قدميه حين خرج من قصره المحصّن المصنوع من خشب الأرز . وفي الممرّ الطويل تقدّم ببطء واحتراس. وحين أبصر « جلجامش » منتصباً أمامه بقامته المديدة ، سعى إليه سعي الهول وهو يترنّح من الغضب . ولوّح له برأسه مهدّداً ، وسمّر في وجهه عينَيه ، عينَ الموت . ولم يستطع « جلجامش » ، من فرط خوفه ، أن يميّز شكله ، أإلهٌ هو ، أم بشر ، أم حيوان مفترس ؟ وكاد لرؤيته أن يفقد توازنه . وبكلّ جوارحه راح يبتهل ضارعاً للإله « شمّش » ، يطلب عونه ، ودموعه تنهمل على وجهه :

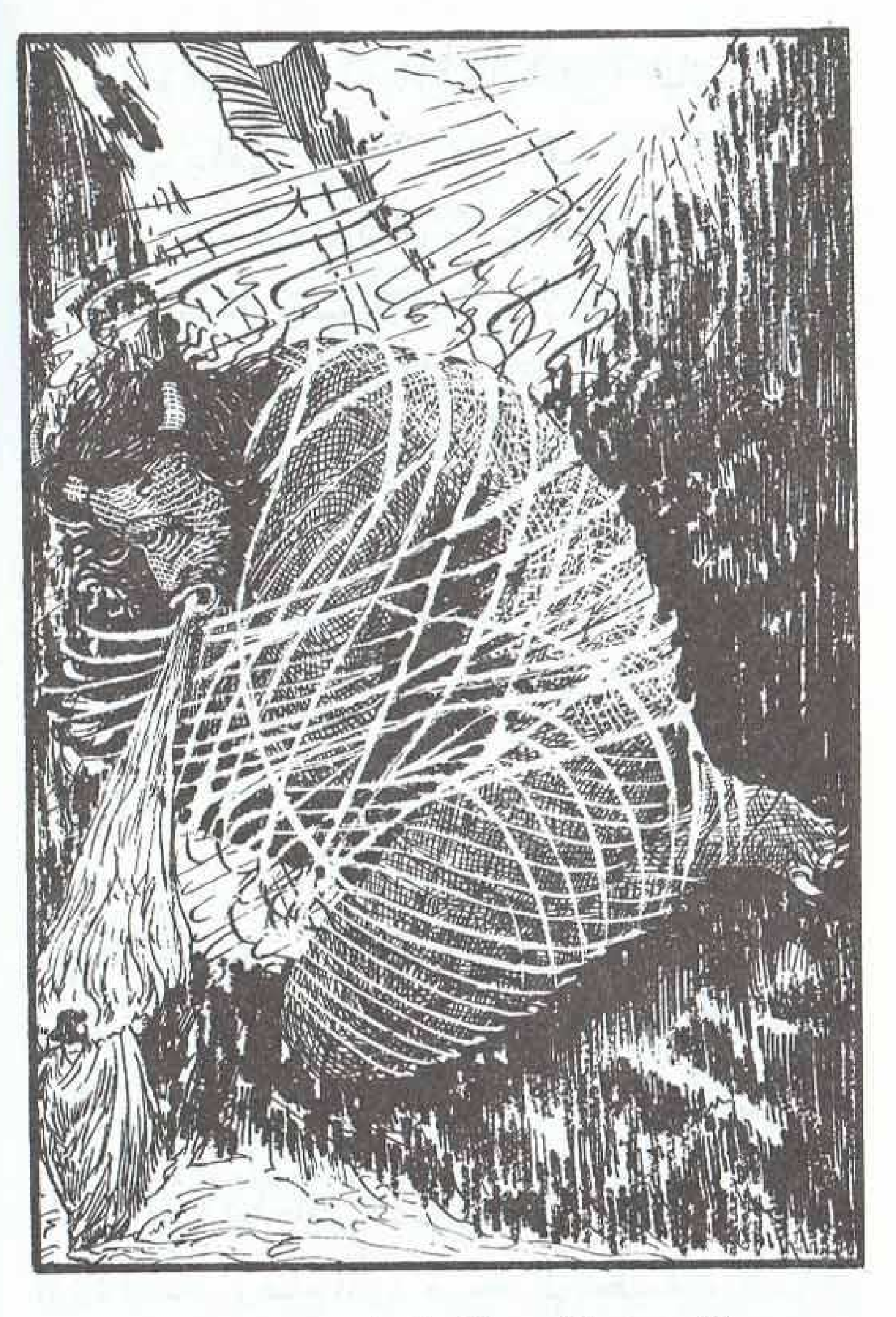
ـ يا إلهي « شمّش » ، أيّها الممجّد بين الآلهة، لقد سلكتُ الطريق التي أمرتَني بسلوكها . والآن كيف الخلاص من هذا الوحش إن أنت قطعت عنّي المَدَد ؟ لقد أزفتْ الساعة الرهيبة ، وها أناذا وحدي، وصديقي، أمام أقوى وأعتى مخلوق على وجه الأرض . ألا أعِنّي يا إلهي بقوّة من لَدُنْكَ .

وسمع الإله المجيد دعاء « جلجامش » اليائس ، فإذا وجه السماء يكفهرّ ويتلبّد بغيوم قاتمة محمّلة بالبروق والرعود ، وإذا الرياح الثماني ، حبيسة الجبل ، تنطلق من عقالها . فاندفعت جميعها على غاب الأرز تسعى كالتنانين ، تزحف كالنيران المحرقة ، كأفاعي تجلّد القلب ، كطوفان مدمّر وسياط بروق كثيرة . وأحاطت جميعها بالمارد « خمبابا » فعصفت في وجهه وصفعت عينيه حتى أعمته وكبّلته مكانه وشلّت حركته .

وهتف به « جلجامش » زاعقاً وقد وُهب البأس والنصر من السماء :

ـ قسماً بحياة أمّي « ننسون » وحياة والدي « لوكالباندا » ، بذراعيّ الضعيفتين وأسلحتي الصغيرة هذه ساقتلك يا « خمبابا » وأغزو قصرك وأنهب كنوزك. وها إنّني أمام عينيك أحطّم أرزك المتشامخ العنيد .

ورفع « جلجامش » فأسه في الهواء وأهوى بها على أوّل أرزة أمامه . وصاح المارد صيحة ألم عظيمة ، كأنّما هو الذي تلقّى تلك الضربة الضارية . ودمعت عيناه لمّا رأى



المارد «خمبابا» تشلـّه الرياح وينفث اللهب

الأرزة العالية تسقط إلى الحضيض وتتمرّغ في التراب .

وزاد انزعاج « خمبابا » وتألـّمه من عناد البطلين ، فاتبعا الأرزة الأولى بسبع أرزات أُخَر قطعا غصونها وجمعاها حزماً حزماً على سفح الجبل .

وعبثاً أرغى المارد وأزبد ، وتهدّد وتوعّد بإحراق الجانين بلهيب ناره . سبعَ مرّات رشقهما بلهبه الصاعق من غير أن ينالهما بأذى . ولمّا انطفأ اللهيب السابع المنبعث من شدقه شهق شهقةَ المغلوب على أمره ، ودلف نحوهما شاحبَ الوجه مثل ثور وحشيّ مغلول الأطراف ، ومحارب كُبّل ساعداه . وراح يتوسّل باكياً كطفل :

ـ إيه « جلجامش » ، أيّها الجبّار المرسَل من قِبَل الآلهة ، دعني أخبرك عن حقيقة أمري . أنا منذ الصغر لم أعرف لي أمّاً ولا أباً قط . في هذا الجبل وُلدت . هو الذي عُني بي ، والإله « أنليل » نفسه جعلني حارساً لغابه ... أطلق حرّيتي يا « جلجامش » أكن لك خادماً

وتكن لي سيّداً . وجميع أشجار هذا الجبل أقدّمها لك ملكاً أبديّاً ، وبنفسي أقطعها وأبني لك منها قصراً يطاول السماء .

ورقّ له قلبُ ملك « أورخوي » ، هو الذي جاء ليقتله ويستاصل شرّه من الوجود . ولكنّه حين لاحظ استياء « أنكيدو » من تبدّله الطارىء بادره قائلاً :

ـ ألا يتعيّن علينا يا « أنكيدو » أن نطلق العصفور الحبيس ليعود إلى عشّه ، ونفكّ أسر السجين ليرتمي بين ذراعي أمّه ؟

ـ كلاّ يا « جلجامش » ، أجاب «أنكيدو» غاضباً . فلئن عاد العصفور السجين إلى عشّه ، والرجل الأسير إلى حضن أمّه ، فلن تعود أنت إلى « أورخوي » حيث تنتظرك أمّك ، ما لم تقضِ على هذا الوحش الزنيم .

وسارع « خمبابا » إلى القول ، وقد توجّس من

« أنكيدو » شرّاً :

ـ بالإفك تفوّهت يا « أنكيدو » ... ما أنت إلاّ رجل مرتزق يعمل لقاء خبزه . وإنّما بداعي الحسد والخوف من الخصم نطقتَ بهذه الكلمات الشرّيرة .

وعاد النقاش يحتدم بين الصديقين :

ـ لا تُصغ إلى توسّلاته يا « جلجامش » ، يجب أن يموت « خمبابا » .

ـ ولكنّي أخشى إن نحن آذيناه أن يُحيق بالنور الظلام ، ويزايل الوجودَ البهاءُ والمجد ، وتنطفىء أشعّتها إلى الأبد .

ـ كلاّ يا صديقي ، ليس الأمر كما تزعم . أمسك أوّلاً العصفور ، فإلى أين تهرب حين ذاك الفراخ ؟ ستهيم شاردةً بين الأعشاب ... ثم ألم تُقسم بحياة والديك بأن تذيق « خمبابا » الموت ؟ أليس بسببه تركت مملكتك وتجشّمت أهوال السفر ؟ أتعطف عليه عندما يهبك الإله إيّاه فريسةً سهلة ؟ لا تخدع بتوسّلاته ! ألا اقتله

يا « جلجامش » ، اقتله قبل أن ينقلب عليك شرُّه .

وعمل « جلجامش » بنصيحة صديقه ، فأخذ فأسه بيدٍ ، وسلَّ سيفه من قرابه وأهوى بحدّه البتّار على رقبة « خمبابا » . وضرب « أنكيدو » الضربة التالية . وإثر الثالثة ترنّح « خمبابا » وسقط على الأرض بكامل مجـــده وجبروته ، فتزلزل « حرمون » و « لبنان » معاً من هول سقطته ، وعمّ عالم الأحياء الفسادُ والبلبلة ، لأنّ الميتَ كان حارس الأرز الأمين .

ولمّا رأى الإله « أنليل » « خمبابا » صريعاً يتخبّط بدمائه استبدّت به ثورةُ غضب فصاح :

ـ كيف أقدمتما على هذا الصنيع البشع والفعلة النكراء ؟ لتحلّ النار بعد اليوم حيثما حللتما ، ولتلتهم الخبز الذي تأكلان ، والماء الذي تشربان .

ومنذ ذلك اليوم استردّ الإله « أنليل » ثانيةً النورَ والمجدَ المجسَّدين في « خمبابا »، وأسبغهما على البرابرة وسباع القفر ، وخلعهما على ابنة « ارشكيجال » الشرّيرة

الشرسة ، حارسة العالم السفليّ .

أمّا « جلجامش » ، ذلك الثور الوحشيّ ونهّاب الجبل والبحر ، وأمّا صاحبه « أنكيدو » ، فقــد حرمهما الإله « أنليل » من مجده ، لأنّ له وحده المجد والعظمة إلى الأبد .

« عشتار » تعرض الزواج على « جلجامش »

وغزا حطّابو المدن السومريّة (أور ، وأورخوي ، وأريدو ، وأكاد ، وقيش ، وشوروباك ، وآدمّا ، ولاغاش ، ولارسا ، وماي) والقرى والدساكر المحيطة بها ، غابةَ الأرز في الجبل الفضيّ ، وراحوا يُعملون الفؤوس في جذوعها وأغصانها طوال السنة ، باستثناء فصل الشتاء ، لأنّ تراكم الثلوج كان يسدّ أمامهم مسالك الغابة . وضجّت أرجاءُ الجبل المقدّس بالأصوات الآمرة ، ورنين المعدن ، وليس من يحرّك ساكناً ، أو يحذّر وينذر ، لأنّ حارس الأرز مات .

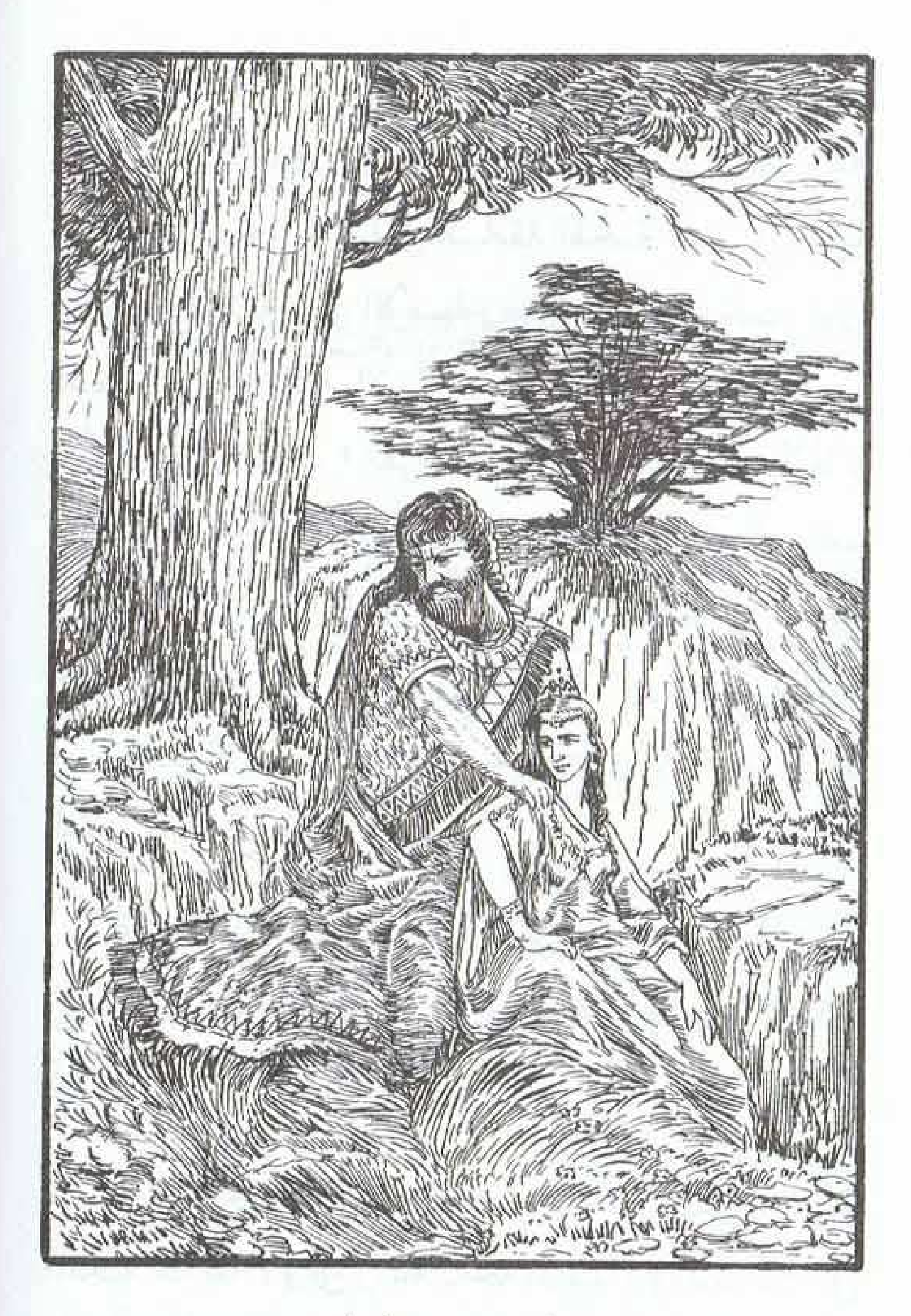
وتدفّق الخشب السليب على أسواق مدينة الإله « أنليل » ، تحمله إليها الحميرُ والثيران والعجول والبغال

والعبيد ، عبر الجبال والأودية والأنهر والغابات ، وعبر السهوب الشاسعات . وارتفعت في سماء المدينة المقدّسة القصورُ المنيفة ، والهياكل السامقة الفخمة تبرق أبراجها الذهبيّة والفضيّة ، في الأصباح والآصال ، تحت نور الشمس ، كأنّما غابة الأرز برمّتها اقتلعت من الجذور وزُرعت على ضفاف « الفرات » بكامل مجدها وجلالها .

فتوافد الناسُ من كلّ الأقطار ليتأمّلوا أبهى العواصم وأعظمها ، ليتأمّلوا « أورخوي » « جلجامش » عاصمة أقوى ملك على الأرض ، وأجمل ملك ، وأحكم ملك ، حتى كادت الآلهة نفسها تغار منه . وطال ما حسد الآلهة البشر وحاولوا الإيقاع بهم .

غير أنّ إلهة واحدة ، بين سائر الآلهة والآلهات ، راعها بهاءُ « جلجامش » وعظمةُ مدينته ، تلك هي الربّة « عشتار » .

وبينما « جلجامش » ، ذات يوم ، يرفل بالحلّة الملكيّة المتألّقة ، وعلى رأسه تاجه المجيد ، وقد تدلّت على كتفيه خصلاتُ شعره الفاحم الطويل ، إذا بربّة الحسن



« عشتار » و « جلجامش »

والجمال تدخل عليه بكامل زينتها ، والعطرُ يتضوَّع من جسمها المضمَّخ بالطيب :

ـ عرفتَني يا « جلجامش » ؟

ـ وهل جمال الربّة « عشتار » يخفى على الأنظار ؟

ـ وعرفت القصد من مجيئي إليك ؟

وإذ لاحظ إسرافها في التبرُّج والزينة عرف كلَّ شيء ، لكنّه تظاهر بالجهل :

ـ لا ...

ـ بلى عرفت . حسناً يا « جلجامش ». جئت أعرض عليك الحبَّ والزواج .

ـ أالخالدون يعرضون الحبّ على الفانين ؟

ـ أريد أن أفنى بحبّك لأخلّدك . هبني رجولتك يا « جلجامش » أَهبْكَ الخلود .

ـ ولكنّي أخشى ، إن فعلتُ ، أن يتسرّب إليك منّي الفناء .

– إذن أنت لا تحبّني .

وتردّد « جلجامش » قليلاً ، ثم قال في ذات نفسه :

– لأنّي أخشى حبّك يا « عشتار » .

ثم أردف عالياً وممتحناً بقصد الوقوف على نيّاتها :

– ماذا تهبينني أيضاً إن أنا اتّخذتك زوجة ؟

فأجابت « عشتار » وقد انتظمتها فرحةٌ طاغية :

– كن لي زوجاً أمنحْك جمالي وحبّي ... أظلّ زوجة وفيّة لك مدى الحياة .

– زوجة وفيّة !

قال ذلك ساخراً بينه وبين نفسه .

وتابعت سكرى بجماله ورجولته ، عمياء بحبّها :

– ساعدّ لك عربةً لا مثيل لها بإتقان الصنعة والجمال ، عربة بقرون من البرونز ، وعجلات من الذهب مرصّعة باللازورد ، يجرّها ، بدل البغال المترهّلة ، شياطينُ العاصفة الأشدّاء الأقوياء . أمّا عشّنا

يا « جلجامش » فساعدّه من الخشب الأثير لديك ، من خشب الأرز ساصنعه وأزرعه حبّاً ، حتى إذا دخلتَه تضوّع بالناردين ، فاقبل الملوكُ والحكّام والأفراد ليقدّموا لك الأتاوة من غلال جبالهم وسهولهم . وساجعل نعاجك تحمل التوائم ، وحميرك تفوق البغال بالأحمال . ولن يكون لثيرانك من قرائن ، وتطبّق شهرةُ خيل مركباتك الآفاقَ بسرعتها .

فأجاب « جلجامش » « عشتار » المجيدة قائلاً :

– ولكن أيّة الهدايا أقدّم أنا لك مقابل ذلك ؟ ما عساني أعدّ من أطياب وثياب لك ؟ وأيّ المآكل أضع على مائدتك ؟ كيف لي أن أعطي طعاماً لإلهة ، وشراباً لمليكة السماء ؟

– لا تسخر منّي يا « جلجامش » . أَصْدقْني القول ، تحبُّني أم لا ؟ تريدني زوجة لك ؟

– لا يا « عشتار » ، أنا لا أحبّك ، ولا أريدك زوجة .

وشعرت ربّة الجمال لأوّل مرّة في حياتها أنّها تطعن في كرامتها وكبريائها . أتكون هي الإلهة البادئة بعرض الحبّ على إنسان فانٍ ويردّ طلبها ؟ ويرفضه بهذه الصفاقة والجرأة ؟ بهذه الصراحة والوقاحة ؟ لكنّها تمالكت ، وقالت بغصّة ، وقد شحب وجهها شحوباً مخيفاً :

ـ ألستُ جديرةً بك يا « جلجامش » ؟ بماذا تعيّرني يا ناكر الجميل ؟

وهدر صوت « جلجامش » في أذنيها هديرَ الرعد :

ـ بماذا أعيّرك؟ وهل فيك خصلة كريمة تتباهين بها ؟ يا للعار يا « عشتار »، يا ويلَ محبّيك منك !

وقالت زاعقةً مخنوقة ، وهي تكاد تنتف شعرها وتمزّق جلدها للإهانة :

ـ يا ويل محبّيَّ منّي ؟ ماذا تظنّني كنت لهم أيّها الملك الصلف ؟

ـ كنتِ لجميعهم جمراً تحت رماد ، باباً خارجيّاً لا

يصدّ ريحاً ولا عاصفة ، قصراً يسحق حاميته . كنت لهم دلواً مثقوباً يبلّل حامله ، كنت حجراً ساقطاً من إفريز ، حذاءً يتعثّر به منتعلُه ، آلة غدّارة معتدية تركت في أرض العدوّ .

ـ اللعنة عليك يا « جلجامش » !

ـ أنا لم أنتهِ بعد . أخبريني من من محبّيك أخلصتِ له الحبَّ حتى النهاية؟ أصغي إليّ لأقصّ مآسيهم : « تمّوز » حبيب صباك الذي أقمت عليه الندبَ والنواح عاما إثر عام، هل بقيت على حبّه ؟ عشقت بعده طائر الشقراق المتعدّد الألوان ، ولم تلبثي أن كسرت جناحيه، وها هو الآن واقع في البستان يصرخ باكياً : « جناحي ، جناحي ! » ثم هِمتِ بالأسد الهائل القوّة ، وعُدت فحفرتِ سبعة فِخاخ للإيقاع به . وأغرمت بالحصان المبرّز في القتال ، لكنّك أعددت له السوط والمهماز والعنان ، وأكرهته على الجري سبعة أشواط والشرب من الماء العكر ، حتى جعلت أمّه « سليلي » تعول عليه وتنوح . وأحببت راعي القطيع فصنع لك الخبزَ ونحر الجداء كلَّ يوم ، فسُمته العذابَ

حتى طرده معاونه من منزله ومزّقت كلابه جنبيه . ثم ألم تهوي « إيشو لانو » بستانيّ والدك الذي كان يأتيك دائماً بسلال ملأى بالثمار ، ويجعل مائدتك تميد بالأطعمة الشهيّة ؟ رنوت اليه ذات يوم وقلت له : « اقترب منّي أيّها المحبوب ايشو لانو ودعني أتمتّع بجمال رجولتك، تعال ، فأنت لي ، وأنا لك ». غير أنّك مسخته خُلْداً يعيش في باطن الأرض ! ألن يكون مصيري يا « عشتار » ككلّ الذين أحببت ، إن أنا غامرت وتزوّجتُك ؟

وجُنَّ جنون الربّة « عشتار »،فهرعت إلى أبيها « آنو » وأمّها « انتوم » في السماء تبثّ لهما شكواها :

ـ إي والديّ ! إنّ « جلجامش » أهانني وتناول سيرتي بأسوإ النعوت وأقبحها !

وردّ عليها « آنو » قائلاً :

ـ أنت السبب في ذلك ، لأنّك تحرّشت به وأثرته !

وقالت « عشتار » ثائرة مهدّدة :

ـ أبتاهُ أرجوك ، سلّط عليه ثور السماء ليهلكه ، أو انفخ فيه روح الصلف والكبرياء ليدمّر نفسه بنفسه ، وإلاّ حطّمت باب الهاوية وكسرت أقفالها ، وشرّعت أبواب الجحيم على مصاريعها ، وبعثت الموتى ليشاركوا الأحياء طعامهم ، فتعمّ المجاعة في الأرض .

ـ حسناً يا بنيّتي ، أجاب « آنو » خائفاً من تهديد ابنته ، لكنّي أخشى إن أنا فعلت حسب رغبتك أن تحلّ في البلاد سبعُ سنين من المحل والجفاف ، فتيبس السنابل على سيقانها وتفرغ من الحبوب . فهلاّ جمعت غلالاً تكفي الشعب ، وعلفاً للماشية ؟

وأجابت « عشتار » :

ـ جمعت كفاف الشعب والماشية لمدّة سبع سنين ، والآن هيّا نفّذ رغبتي ، لأنّ ملك « أورخوي » جاوز الحدّ بكبريائه ، وهو الوحيد بين المائتين الذي تجرّأ على إهانتي .

وأذعن الإله « آنو » لرغبة « عشتار » ورضخ

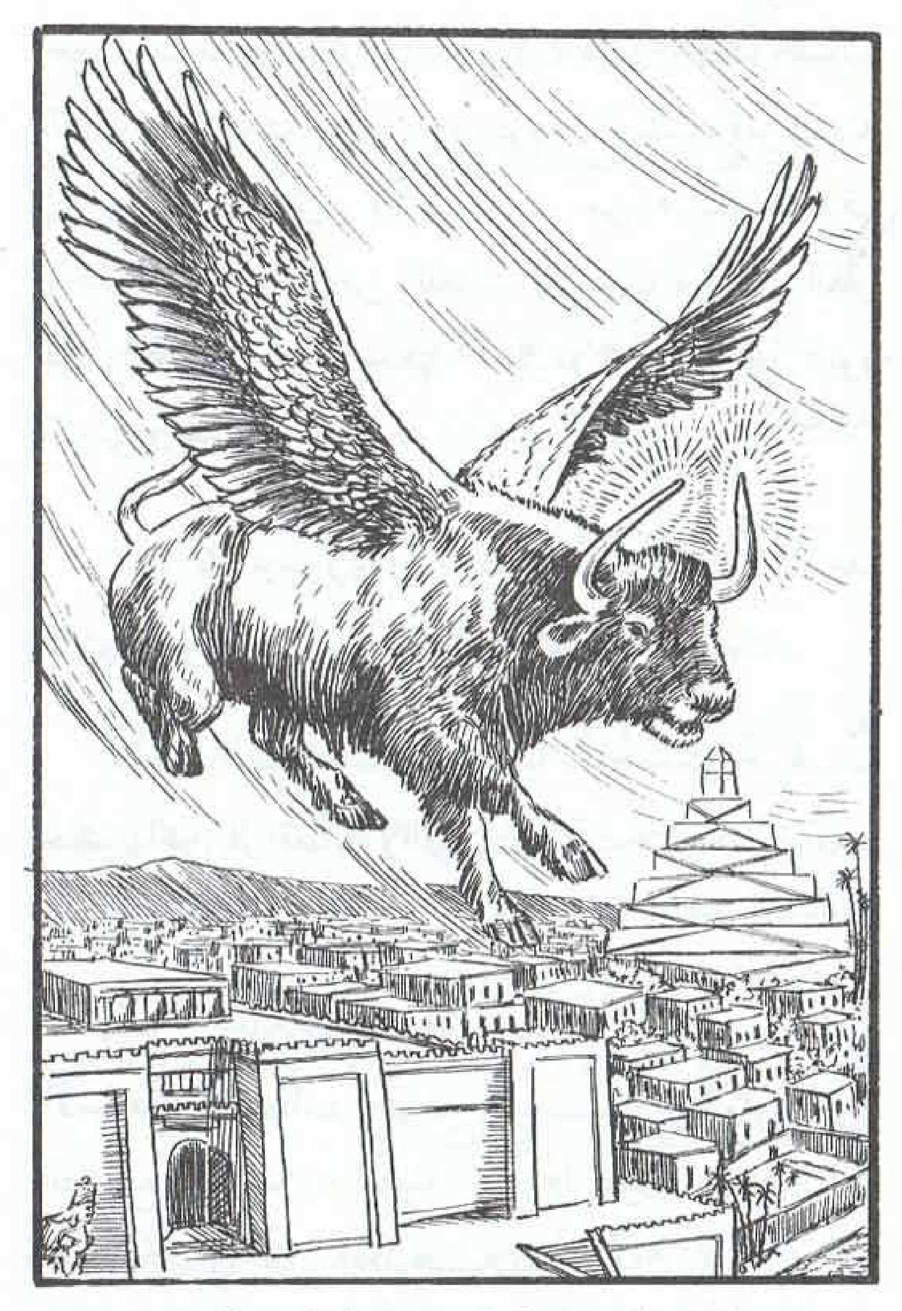
لتهديدها ، فاسلم إليها زمام الثور السماويّ ، فاطلقته يعيث في الأرض الدمار والموت ؛ فقتل في حملته الأولى ستَّ مئة رجل ، وفي هجومه الثاني صرع المئات ، وفي الثالث كرّ على « أنكيدو » يريد تمزيقه ، فتفاداه بسرعة البرق ووثب عليه فامسكه من قرنيه . وأرغى ثور السماء ورشق وجه « أنكيدو » بزبده ، وساطه بذيله القاسي .

وهتف « أنكيدو » « بجلجامش » مُهيباً به ، وهو ما زال ممسكاً بقرنَي الثور :

– لقد آن لنا يا صديقي أن نخلّف وراءنا اسمين خالدين . هذه هي الفرصة التي طالما انتظرناها . فهيّا اغرز سيفك عميقاً بين سنام الثور وقرنيه .

ومثل الصاعقة انقضّ « جلجامش » على ثور السماء ، وأغمد سيفه بين سنامه وقرنيه ، فسقط على الأرض سقوطَ الجبل . فتدافع الصديقان عليه وانتزعا قلبه من صدره وقدّماه قرباناً للإله « شمّش » . . .

وسُرّ الإله بالتقدمة الذكيّة . غير أنّ « عشتار » ،



الثور السماوي المجنّح وهو هابط من السماء

حين رأت ثور السماء ممرّغاً بدمائه، مبقور الصدر، سليب القلب، تسنّمت سور « أوروخوي » العظيم، فقفزت منه إلى برجها السامق، وأخـــذت من هنالك تقـذف « جلجامش » بوابل من اللعنات والسباب، بسبب العار الذي أُلحق بها. ولمّا سمعها « أنكيدو » انتزع فخذ الثور اليمنى وقذف بها في وجه « عشتار » وقال:

ـ لو كان بميسوري أن أقبض عليك لربطت أحشاء هذا الثور بأطرافك. أجل، هذا ما كنتُ سافعله بك.

واستشاطت « عشتار » غضباً، فجمعت حولهـــا حاشيتها من الراقصات والقيان وأقامت مناحة حول فخذ ثور السماء...

أمّا « جلجامش » فإنّـه دعا الأبطال، وصانعي الأسلحة، وأصحاب الحرف جميعـــاً، ليتأمّلوا الثور الصريع، فتقاطرت المدينة بأسرها عليه، وذُهل الناس لضخامة قرنَي الثور المغلّفـــين باللازورد، وكان كلٌ واحد يزن ثلاثين رطلاً ويسع ثلاث كيلات من الزيت.

وطفقت النساء يرقصن ويزغردن من الفرح.

فخاطب « جلجامش » المغنّيات وقد استبدّت به نشوةُ الظفر:

ـ مَن الأَمْجدُ بين الأبطال؟ من الأَعظـم بين الرجال؟

وهتفن بصوت واحد:

ـ « جلجامش » هو الأمجد بين الرجال، « جلجامش » هو الأعظم بين الأبطال.

ثم انطلق الصديقان إلى نهر « الفرات » وغسلا أيديهما الملطّخة بدماء الثور. وقام « جلجامش » وقدّم لوالده وحاميه الإله « لوكالبندا » ثلاث كيلات من الزيت بقرني الثور... ثم حمل هو وصديقه القرنين إلى قصره وعلّقهما على الحائط تخليداً لذكرى انتصاره.

وكان في ذلك اليوم عيدٌ كبير في قصر الملك، واحتفالاتٌ في سائر أرجاء مملكته ضجّت لها السماء.

وفي الليل رأى « أنكيدو » حلماً أيقظه ، فراح في الصباح يقصّه على « جلجامش » :

— أوّاه يا سيّدي ، أيّ حلم هذا الذي رأيت البارحة ؟!
لقد كان جميع الآلهة مجتمعين في مجلس واحد ويتداولون في أمري . كان هناك « آنه » ، « وأنليل » ، و « آيا » ، و « شمّش » ... وسمعت « آنو » يقول « لأنليل » :

— حتمٌ أن يموت أحدهما لأنّهما قتلا ثور السماء و « خمبابا » حارسَ الأرز ... وليكن هذا الذي انتهك حرمة الغابة المقدّسة ، وسرق الأرز .

فأجاب « أنليل » :

— كلاّ ، بل يجب أن يموت « أنكيدو » وحده .

وتدخّل « شمّش » المجيد :

— إنّهما بإيعازٍ منّي وبمساعدتي قتلا ثور السماء والمارد « خمبابا » . فكيف تريد أن يموت « أنكيدو »

وهو بريء ؟

وغضب « أنليل » على الإله « شمّش » لتدخّله :
— لأنّك كنت تتردّد عليهما كلّ يوم كواحد منهما ، فلهذا تقول ما تقول . وأنا أقول : يجب أن يموت « أنكيدو » ...

موت «أنكيدو»

وصدق حلم «أنكيدو» ... إذ ما لبث أن مرِض بعد أيّام، وحين عاده صديقه «جلجامش» تهاوى على قدميه، وانهمرت دموعه على خدّيه الذابلين. فخاطبه «جلجامش» قائلاً :

– إي أخي وصديقي، لماذا أُبَرّأ أنا، وتؤخذ أنت؟ أَحتْمٌ عليَّ أن أقف خارجاً على باب الأرواح، بأمر من شبح الموت، ولا أرى أخي مرّة ثانية ؟ أصحيح أنّني لن أراك بعدُ يا «أنكيدو» ؟

وراحت دموع «جلجامش» تتدفّق من عينيه ... وأخذ «أنكيدو»، وهو يتقلّب على فراش المرض، يلعن «بوّابة الأرز» التي حطّمها بفأسه، ويخاطبها كما

لو كانت شخصاً من لحم ودم :

– إي بوّابةَ الأرز الخدّاعة !.. ظهرتِ لي في أوّل ما ظهرتِ خشباً عاديّاً، فأُخذتُ بمرآك من بعيد، قبل أن أشاهد الأرز العظيم. في منتهى الكمال والإتقان كان صنعك ... في «نيبور»، مدينة الإله «أنليل»، كان صنعك، ولكن آه لو علمتُ بالنتائج قبل أن أُقدم على عملي الطائش وأحطّمَك !.. لو علمتُ أنّ انتهاكَ حرمتك، أيّتها البوّابة المقدّسة، سيكلّفني الحياة، ما رفعت فأسي في وجهك، لا بل ما مسستك حتى بخدش !

ثم طفق «أنكيدو» يصبّ لعناته على الصيّاد والمرأة اللذين انتزعاه من الغاب وقاداه إلى المدينة :

– ملعونٌ ناصب الفِخاخ الذي أوقع بي !.. لا وَقَعَ صيدٌ في شباكه، ولا حُقّقت رغبةُ قلبه ! وأنتِ أيّتها المرأة التي أوصلتِني إلى هذه النتيجة، عليكِ كبرى لعناتي !.. ليكن الشارع مأواك، وليلطم خدّكِ كلُّ عابرِ سبيل، ولتموتي بسببٍ من إسرافك وتبذّلك !...

ونادى الإله « شمّش» « أنكيدو » حين سمع شكواه:

– إيه « أنكيدو » ، علامَ تلعن المرأة التي علّمتك شرب الخمر وأكل الخبز الذي يليق بالآلهة ، ودثّرتك بقشيب اللباس ؟ ثم لماذا التبرُّم بالحياة وقد وهبتك الآلهة صديقاً مجيداً هو « جلجامش »،فاتّخذك له خِدناً وخلاً حميماً ، لا بل وأخاً عزيزاً ؟ هذا الصديق الذي أجلسك على سرير ملكه، وجعلك تتربّع في عربة على يساره ،فصار ملوك الأرض يقبّلون يدك بعد أن كنت تفترش الأرض وتعيش مع الحيوانات . . . ثم انظر الآن ، فها هو شعب « أورخوي » بأسره يبكيك ويندبك . وغداً ، عندما تموت ، سيرسل « جلجامش » الملك العظيم شعره ، ويلبس جلد الأسد ، ويهيم على وجهه في القفر حزناً عليك .

وحين سمع « أنكيدو» أقوال «شمّش» المجيد ، هدأ حزنه ، وندم لأنّه لعن المرأة ، فعاد يطريها ويدعو لها بالخير :

– بوركتِ أيّتها المرأة ، وسلمتِ من كلّ أذى ! . . ليحبّك الملوك والأمراء والأشراف ، ولتمتلىء حجرتك

المحصّنة بالحجارة الكريمة والذهب .

ونام « أنكيدو » تلك الليلةَ قريرَ العين ، مستسلماً لدائه باطمئنان ، لأنّه طرد الحقد عن قلبه ، وقبل مصيره بصبر وجلد . . . وفي موهن من الليل رأى هذا الحلم العجيب :

كانت السماء فوقه تئنّ وتتفجّع ، والأرض من تحته تجيب ، ورأى نفسه يقف وحده أمام مخلوق مرعب مخيف. كان وجه هذا المخلوق متجهّماً كالحاً كطائر العاصفة الأسحم . ومثل الطائر انقضّ عليه واختطفه بمخالبه البشريّة ؛ وأخذ يطوّح به في الهواء ويطوّح حتى كاد يخنقه . ثم ساقه إلى مكان بعيد بعيد ، إلى قصر « ايرقلّه» ملك الظلام ، تلك الدار التي ما من أحد وَلَجَها وعاد منها ، وكانت تستقرّ في أعماق الظلمات. . . وهاله ما رأى : ثمّة كانت الدار التي لا يبارحها نزلاؤها إلى الأبد ، وأبدَ الدهر يتسكّعون في الظلام ويقتاتون بالتراب والطين ، ومثل الطيور يكتسون بالريش أغطيةً لهم . . . وما إن توغّل فيها قليلاً حتى شاهد ، ويا لهول ما شاهد ! شاهد

ملوك الأرض وقد اختلطوا مع الصعاليك، وانتُزعت عن رؤوسهم تيجانهم المجيدة ، وكان هناك الحكّام والأمراء ، وكلّ أولئك الذين تربّعوا على سدّة الحكم ، وسادوا العالم في أيّام مضت وانقضت ...

أمّا أولئك الذين جلسوا على عروش الآلهة ، مثل «آنو» و« أنليل »، فرآهم « أنكيدو » في حالة زريّة حقيرة يرثى لها : لقد رآهم بأسمال الخدم وهم ينقلون المياه الباردة بالدّلاء الجلديّة ... وفي رواق مظلم آخر رأى الكهنة الكبار، والشمامسة، وجوقات المرتّلين، وخدّام الهياكل، و« ايتانا » ملك « فيش» الذي طار به النسر في الأزمنة الخوالي إلى السماء ، ورأى أيضاً « سموقان » إله الماشية، و«ارشكيجال » ملكة العالم السفليّ ، وقد جلست قبالتها القرفصاء بعلةُ « شري » قهرمانة الآلهة والقيّمة على سجلاّتها ، وكانت تحمل لوحاً تقرأ فيه . فرفعت رأسها ورأت « أنكيدو » فخاطبته قائلة :

ـ من ذا الذي أتى بهذا الإنسان إلى هذ المكان ؟

وأجفل « أنكيدو » على هـذا الصوت المباغت ،

واستيقظ من نومه مثل رجل كاد دمه ، دونما وعي منه ، ينزف حتى آخر قطرة . وقصّ حلمه هذا على «جلجامش» ورجاه أن يتّخذ أميراً آخر سواه رفيقاً له بعد موته .

كان « جلجامش » ، وهو يستمع إليه ، يبكي بدموع غزيرة ، ثم توقّف وقال «لأنكيدو» المشرف على الموت :

ـ رائعاً كان الحلم الذي رأيت يا صديقي ، ولكنّ هوله كان أعظم . ومع ذلك فعلينا أن نتقبّل عواقبه. إنّ حلمك يا « أنكيدو » أبانَ أنّ الشقاءَ مدركٌ ، في نهاية الأمر ، الرجلَ مهما كان قويّاً ، وأنّ الحزن إنّما هو خاتمة الحياة . والآن سوف أضرع للآلهة الكبرى ، لأنّ صديقي قد رأى حلماً منذراً بالويل .

واستسلم «أنكيدو» بعد ذلك الحلم إلى آلامه المبرّحة ، ولازم فراشه يوماً كاملاً . إلاّ أنّ آلامه ما فتئت تزداد ضراوةً كلّ ساعة ، حتى اليوم الثاني عشر . وعند ذلك شعر بأنّ ساعة موته قد أتت ، فطلب أن يوافيه صديقه « جلجامش » . وحين جاء ، قال له :

– إي صديقي ، إنّ كبير الآلهة لعنني وحكم عليّ بأن أموت مجلّلاً بالعار على فراش ! أوّاه يا « جلجامش » ، كم كنت أخشى هذا السقوط ، وكم هو سعيد الرجل الذي يسقط كبطل في ساحة القتال ! أمّا أنا فينبغي أن أموت في الهوان والذلّ . ولذلك أستحلفك بأمّك « ننسون » أن لا تتركني أموت هنا في قصرك .

وظنّ « جلجامش » أنّ صديقه يَهذي بسبب من نوبة الموت التي تنتظمه ، فقال له :

– إلى أين تريد أن آخذك يا صديقي ؟

فأجابَ « أنكيدو » بصوتٍ كسير بثّ فيه آخر أنفاسه :

– أتوسّل إليك أن تنقل فراشي إلى كوخ على ساحل « الفرات » وتخومِ الغاب ، لأقضي الساعات المتبقّية من عمري القصير في أحضان أمّي الطبيعة ، فأكحّل عينيّ للمرّة الأخيرة بشروق الشمس ورؤية رفقائي الحيوانات . أنقلني إلى هناك بسرعة يا « جلجامش » قبل أن ينقلني

إله الموت على أجنحته السوداء إلى العالم السُّفليّ . أوّاه يا صديقي ، كم هي حلوة الحياة ، وكم جميل أن يتمتّع الإنسان بها ، لا سيّما في فصل الربيع هذا ، حين تَمُوج الأرض بضُروب الرياحين والزهور الملوّنة ، ويَسري النسغ دفاقاً في عروق الشجر فيكسبها الحياة والنضارة ، وتنطلق قطعان الحيوانات ، بعد انحباس في أحجارها وكهوفها ، لتسرح وتمرح في المراعي الخضراء ، وتتزاوج وتنسل وتملأ الأرض .

وكانت تلك آخر كلمة لفظها « أنكيدو » ، وبعدها فارق الحياة .

وأخذ « جلجامش » يبكيه ويندبه بهذه الكلمات :

– إسمعوني يا عظام «أورخوي»، إنّني أبكي صديقي « أنكيدو » بكاء مرّاً ... وأنوح عليه نوحَ المرأة على ولدها ، ونوح الأخ على أخيه .

إيه «أنكيدو» ، يا صديقي ويا أخي، لقد كنتَ الفأس التي على جنبي ، وعزمَ يدي ، وسيفَ حمائلي ...

« ألا اسمعوا يا ناس ، فثمّة صدى يتناهى عبرَ البلاد،
صدىً يحاكي نوح الأمّ الثكلى ، صدى يقول : ألا ابكيه
يا سائر المسالك التي عبرناها معاً، ويا أيّتهـــا الحيوانات
التي اصطدناها ، ألا ابكوه يا فهد ، يا نمر ، يا أسد، يا ببر ،
يا غزال ، يا أيـّل ، يا ثور ، يا ظبية .

« ويبكيك الجبل الذي تسلّقناه حيث صرعنا المارد ،
« والأنهر التي سرنا على ضفافها تبكيك ،

« ويبكيك محاربو « أورخوي » الذين قتلهـــم ثور
السماء ، وكلُّ سكّـان « أريدو » يبكونك يا « أنكيدو » !

«والشبّان إخوانك قد أرخوا الشعور كالنساء وراحوا
يندبونك .

« إنّ قَدَراً شرّيراً سيُقبل اليوم . أوّاه أخي الصغير
« أنكيدو » ، ويا أعزّ صديق ، أيّ نوم هـــذا الذي
ينتظمك الآن ؟ لقـــد ضعت في الظلام فما تقوى على
سماعي ! »

وجسّ « جلجامش » قلب صديقه فلم يكن ينبض ،

ولم يكن صديقه ليفتح عينيه . فأدرك أنّـه مات . فمد
البرقع فوقه مثلما تُبَرقَـع العروس . ومثل أسد ، لا بل
مثل لبوءة سُرق أشبالها ، أخذ يزأر ويصول حول فراشه،
ينتف شعره ، يقذفه هنا وهناك . ومزّق ثيابـــه الجميلة
وجرّها خلفه على الأرض كالأسمال البالية .

وفي اليوم التالي ،وقبل أن تلوح أُولى تباشير الفجر ،
أخذ « جلجامش » يُعول ويقول صارخاً :

ــ مثلما وفّرتُ لكَ في حياتـــك النومَ على سرير
ملوكيّ ، والجلوسَ عن يساري حتى جاء ملوك الأرض
يقبّلون رجليك ، هكذا، بعد موتك ، سأجعل كلَّ سكّان
« أورخوي » يندبونك ويرثونك عالياً . والشعب الذي
تعوّد على الأفراح ، سوف يحني الظهر حزنـــاً عليك .
وعندما تعود إلى التراب سأرخي شعري ، وألبس جلد
أسد ، وأهيم على وجهي في البراري .

هكذا ظلّ « جلجامش » ينوح ويندب صديقـه .
سبعةَ نهارات وسبعَ ليالٍ بكاه . حتى إذا حلّ الدُّودُ في
جثمانه ، واستولت عليه « أنوناكي » زبانيةُ الموت ، أسلمه

ليدفن . وأصدر إعلاناً دعا فيه جميع صنّاع البلاد والصاغة والحدّادين والنحّاتين ، وأمرهم بأن يصنعوا تمثالاً رائعاً لصديقه . فنحتوا التمثال ، وكان جذعه كلّه من اللازورد ، وبقيّة جسمه من الذهب الخالص . ونُصبت مائدة من خشب الأرز ، فوُضع عليها إناء خمريّ اللون مليء بالعسل ،وآخر من اللازورد مليء بالدهن ، تقدمة للإله « شمّش » .

بحثاً عن الخلود

وُوري « أنكيدو » التراب ، وانتهت أيّام الحزن عليه ، فأخذت الحياةُ في « أورخوي » تعود إلى مجراها الطبيعيّ ، وقفل كلّ إنسان إلى عمله كأنّه لم يكن شيء ممّا كان ، ما عدا « جلجامش » ، فقد ظلَّ وحدَه على صمته وتفكيره وحزنه العميق حين شعر ، كما لم يشعر من قبلُ ، بأنّ مصيره الموت هو أيضاً . كان قبل ذلك يظنّ أنّ الحياة إنّما هي لهو وعبث ، أو مغامرات ومجد ، وأنّ عمر الإنسان ، أو عمره على الأقلّ ،ما له نهاية . حتى إذا فُجع « بانكيدو » راعه صمته وهموده وانحلالُ جسمه ، وهالته هوّة الموت الفاغرةُ شدقَها أمامه. فتذكّر الحلم الذي رآه صديقه في أُخريات أيّامه ، ذلك الحلم الذي نقله إلى

عالم الأموات حيث الملوكُ والأمراء يعيشون أبدَ الدهر في الظلام ، ويقتاتون بالماء والطين ، وقد تعرّوا من تيجانهم ومجدهم . وعند ذلك خلع عن جسمه ثيابَ الملك ، ولبس جلد أسد ، وبارح قصره تحت جنح الظلام ، راح يهيم على وجهه في المتاهات بحثاً عن جدّه « أوت ناباشتم » ليَهبه الخلود ، لأنّ الآلهة كانت قد نقلت جدّه بعد الطوفان إلى موطن « دلمون » في حديقة الشمس ، حيث كان ينعم ، دون سائر البشر ، بالحياة الأبديّة .

وبلغ « جلجامش » ، بعد تَطوافه الطويل ، وجولانه عبر البراري والغابات والسهول الشاسعة ، جبلَ « ماشو » الذي يحرس مشرق الشمس ومغربها ، وتتطاول قمّتاه حتى جدار السماء ، وينحدر سفحه إلى العالم السفليّ . وكانت تحرس بابَه « العقاربُ البشريّة » ذاتُ المجد المهول التي تبعث نظراتها الموت في قلوب أشجع الرجال . ولمّا شاهدها « جلجامش » خبّأ عينيه من وهجها الساطع لِلَحظات ، ثم ما لبث أن تمالك ، وتقدّم صوبَها بجرأة

وإقدام . فدهش الرجل العقرب من شجاعته وقال له :

ـ ويحَك يا هذا ، ما من رجل سواك استطاع أن يقتحم هذا الجبل الذي يكتنفه الظلام . ألا أخبرني : ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

وأجابه « جلجامش » :

ـ إنّ صديقي « أنكيدو » قد مات ، وخفت أن أموت مثله ، فأتيت إلى هنا لأبحث عن جدّي « اوت ناباشتم » وأسأله عن سرّ الحياة . فحذارِ ، إنّ كلّ من يعترض طريقي أسير فوق جثّته !

وفتح له الرجل العقرب باب الجبل خوفاً من بطشه . وأمعن « جلجامش » في تسلّق الجبل والتوغّل في مسالكه الوعرة المخيفة . وما إن قطع ثلاثة أميال حتى شعر بالظلام يدلهمّ حوله . ولم يعد يرى شيئاً أمامه أو خلفه . وظلّ على هذه الحال حتى قطع سبعة وعشرين ميلاً ، حين أحسّ بريح الشمال تلفح وجهه . غير أنّ الظلام كان ما

يبرح صفيقاً دامساً . ولمّا اجتاز ستّة أميال أخرى ظهر
له نور الفجر . وفي نهاية الأميال الستّة والثلاثين تدفّق
نورُ الشمس متألّقاً ساطعاً يملأ الدنيا . فإذا هو في فردوس
الآلهة الذي تتحلّقه خمائلُ تحمل الأحجار الكريمة .
وراعته ثمارُ الياقوت الخمريّة اللون وهي تتدلّى خلل
أوراق من زمرّد . وبدل الشوك والحسك كانت هناك
حجارة كريمة من كلّ نوع ، كالمرجان والزبرجد والعقيق
ولآلىء البحار .

وبينما « جلجامش » يسير مذهولاً في هذا الفردوس ،
وبمحاذاة ساحل البحر ، رآه الإله « شمّش » وحزن
حين وجده يلبس جلد الحيوانات ويقتات بلحومها ، فقال
في نفسه : « لا . ما من إنسان سلك هذا الطريق ، ولن
يسلكه إنسان » . ثم التفت إلى « جلجامش » وقال له :

ـ عبثاً تركض يا « جلجامش » خلف الحياة التي
تَنشد . إنّك لن تجدها .

فأجابه « جلجامش » متوسّلاً ضارعاً :

ـ ألا أيّها الإله « شمّش » ، دعني أكحّل عيني بنور

شمسك ، وأتمتّع ببهاء نورك ، حتى يكلّ منّي الطّرْف ،
لأنّي ، بأيّة حال ، لست بأفضلَ من إنسان ميت .

وكانت « سيدوني » ، ساقيةُ الخمر ، جالسة ذلك
النهارَ في حديقتها على الشاطىء بين كؤوسها ودِنانها
الذهبيّة ، وقد اكتست بغلالة رقيقة شفّافة . فشاهدت
« جلجامش » بلباسه الجلديّ ، وجسدِه المقدود من مادّة
الآلهة ، مقبلاً نحوها . وكانت الكآبة بادية على وجهه ،
فظنّته لأوّل وهلة مجرماً ، فأوصدت بابها دونه . ولمّا
سمع « جلجامش » صوت المِزلاج ناداها قائلاً :

ـ يا فتاة الحانة ، لماذا تغلقين بابك في وجهي ؟ ألا
اعلمي أنّي لمُحطِّمُه تحطيماً ، فأنا « جلجامش » الذي
قتل ثور السماء ، وصرع المارد « خمبابا » حارس جبل
الأرز ، وفتك بأسودٍ كثيرة في ممرّات الجبال .

فأجابته « سيدوني » :

ـ إن كنت حقّاً البطل « جلجامش » فعلامَ وجنتاك
ذابلتان ، ووجهُك شديد الاكتئاب وقد أحرقه الحرّ

والقَـرّ ؟ ولماذا هــذا البؤس في قلبك ، وعلى سِيمائك وَعْـثاءُ السفر الطويل ؟ ما الذي جعلك تتيه هكذا في البراري بحثاً عن الريح ؟

ردّ « جلجامش » :

ـ إنّما عن الحياة أبحث يا « سيدوني »، وإلى جدّي « أوت ناباشتم » أيَـمّـم المطيّـة .

وقالت له « سيدوني » بنبرة حزينة ، وقد رقّ قلبها لحاله :

ـ عبثاً تركض خلف الحياة الأبديّـة يا « جلجامش ». فعندما خلق الآلهة الإنسانَ جعلوا المـوت من نصيبه ، واحتفظوا بالحياة لهم وحدَهم . لذلك تمتّعْ بحياتـك القصيرة في الأرض ، واملأ بطنك بشهيِّ الطعـام وطيِّـبات الخمور . وافرح يا « جلجامش » ، وارقص ، وأقِم الأعياد ، وتنعّـم بزاهي الثياب ، واستحمّ بالماء العطر ، وهَدْهِدْ طفلك ، وافرح بالزوجة التي هي بين ذراعيك ، لأنّ هذا أيضاً من نصيب الإنسان ...

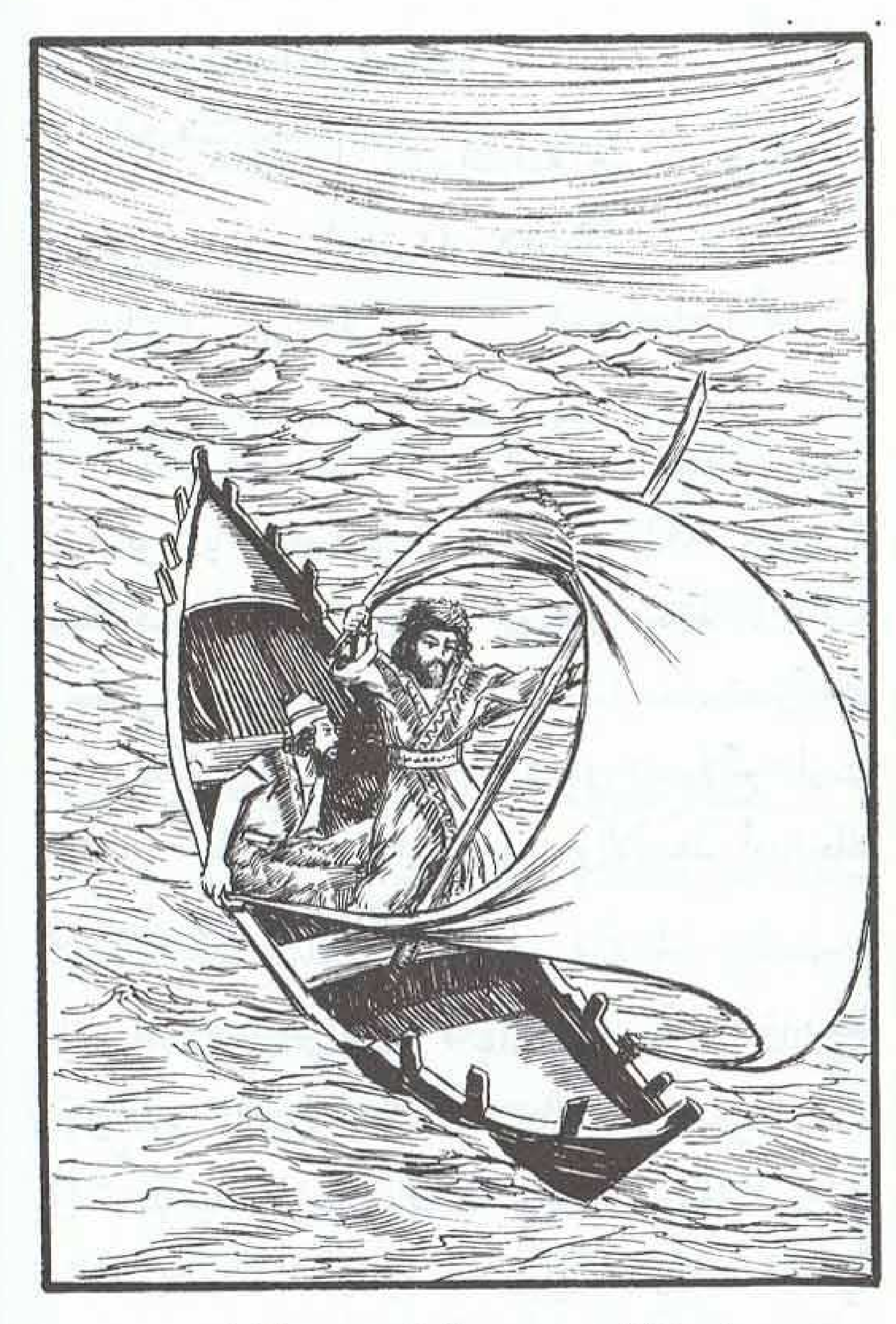
وقال « جلجامش » بإصرار :

ـ كلُّ هذا جميل أيّتها الساقية الحسناء ، ولكن أين الطريق إلى « أوت ناباشتم » ابن « اوبارا توتو » ؟

قالت له صانعة الخمور :

ـ ما من أحـد منذ بدء الكون استطاع عبور الأوقيانوس يا « جلجامش » . رهيبةٌ مسالكُه ، وعميقـة عميقة مياهه . ألشمس وحدها تجوزه في جلالها ، والإله « شمّش » وحده يقطعه . ولكنّـك ما دمت تصرّ على عبوره فثمّة في أعماق الغاب « اورشانابي » ، ملاّح « أوت ناباشتم » ، فلعلّـك تعبر المياه معه ، وإلاّ عُدْ أدراجك على عجلٍ قبل أن تهلك .

وفي أعماق الغاب التقى « جلجامش » « باورشانابي » ربّان «اوت ناباشتم» . وصنع الاثنان مركباً عظيماً دفعاه إلى خضمّ مياه الموت ، وقد وقف « جلجامش » في وسطه رافعـاً ذراعيه كصاريتين ، ولباسه الجلديّ كشراع . وكانت الريح مؤاتية ، فقطعا في ثلاثـة أيّام



« اورشا نابي » و « جلجامش » في المركب

مسافةَ شهر ونصف الشهر ، حتى إذا أشرفا على « دلمون »، المكان الذي تمرّ فيه الشمس ويقطن الخالدون ، لمحهما « أوت ناباشتم » ، فقال في قلبه متسائلاً :

– عجباً كيف يبحر هذا المركب القادم دونما حبال وشراع ؟ ولماذا لا يقوده ربّانُه ؟ ومن هذا المنتصب على متنه كالسور العالي ؟ بكلّ تأكيد هو ليس أحد رجالي .

ولمّا بلغ المركب الشاطىء قفز منه « جلجامش » ، وهرع إلى جدّه وارتمى بين ذراعيه باكياً شاكياً :

– إي أبتاه « اوت ناباشتم » ، أنا « جلجامش » ابن « لوكال باندا » . لقد عانيتُ مشقّات كثيرة ، وقاسيت الأهوال، حتى وصلت إليك. إي جدّاه ! يا من دخلت في زمرة الخالدين ! إنّي أتيت لأسالك عن سرّ الحياة . هلاّ أخبرتَني كيف الوصول إليه ؟

فأجابه « أوت ناباشتم » :

– ما من بيت يا ولدي نسكنه إلى الأبد ، أو عَقدٍ

نُبرمه إلى ما لا نهاية . وهل رأيت إخوة يتقاسمون ميراثاً مدى الأيّام؟ ألتنّين المجنّح وحده يدور في الأفلاك ويشهد مجد الشمس . ما من دينونة لأحد يا « جلجامش » . وسيّان النوم والمنيّة ، والسيّد والمَسود في يوم الدّين ، حين يقف جميع البشر أمام « النوناكي » أرباب الدينونة و« ماميتون » أمّ الأقدار ، ليقرّروا مصائر البشر .

فقال « جلجامش » :

ـ إنّ شكلك يا « اوت ناباشتم » لا يختلف عن شكلي بشيء . وما من غريب في قَسَماتك . فاصدقني القول : كيف دخلت أنت في صحبة الآلهة واكتسبت الخلود ؟

ولم يجد « اوت ناباشتم » بدّاً من أن يقصّ على حفيده قصّة الطوفان فقال :

ـ كان الآلهة في قديم الزمان هم الذين يحكمون البشر في مدينة « شروباك » التي كانت تقع بعيداً شماليّ غربيّ « أورخوي » . ثم عنّ للآلهة ذاتَ يوم أن يُغرقوا العالم بطوفان مدمّر ، فعقدوا اجتماعاً برئاسة أبيهم « آنو »

وعضويّة الآلهة « أنليل » مشيرهم ، و « ننورتا » وزيرهم، و « انوكي » رسولهم ، و « آيا » الذي جاء إلى كوخي القصبيّ وخاطبني قائلاً :

ـ يا كوخ القصب ! يا حائط القصب ! يا حائط ! يا حائط ! إسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط ! يا رجل « شروباك » ويا ابن « اوباراتوتو » ، اهدم البيت الذي تسكنه وابنِ لك فُلكاً وانجُ بنفسك .

وهكذا قمتُ يا « جلجامش » وبنيتُ لي فُلكاً عظيماً نقلت إليه بذار كلّ حيّ من حيوان ونبات ، كما نقلت إليه كلّ ما أَملك من ذهب وفضّة ، مع جميع أهلي وأقربائي وماشيتي . ثم جاء الطوفان وغمر الأرض والجبال العالية ، فمات كلّ حيّ على وجه الأرض ، الأمر الذي أحزن الآلهة وأبكاها . حتى كان اليوم السابع ، فهدأ اليمّ ، وسكنت العاصفة ، وبانت اليابسة ، فاستقرّ فلكي على جبل « نصير » لمدّة سبعة أيّام أخرى . ثم خرجت من فلكي مع أهلي وحيواناتي ، وقرّبت إلى الربّ قرباناً في أربع عشرة قدرة . فتنسّم الآلهة رائحة قرابيني، وحاموا

كالذباب حول قدوري . فقامت الرّبة « عشتار » ورفعت بيمينها عقد الجواهر الذي وهبها إيّاه الإله « آنو » وقالت :

ـ إنْ أنسَ عقد اللازورد هذا الذي يَزين جيدي ، لا أنسَ هذا اليوم المجيد بين الأيّام . وسوف أُعيد الحياة والخصب والفرح إلى الكون إلى مدى الأيّام .

ثم تقدّم الإله « أنليل » منّي ومن زوجي ، وأصعدنا كلينا إلى متن الفلك وباركنا أمام جميع الآلهة والأهل وقال :

ـ لم يكن « أوت ناباشتم » قبل اليوم سوى إنسانٍ قابلٍ للموت ككلّ الناس ، لكن بعد اليوم سيصبح هو وزوجه إلهين خالدين مثلنا . وسوف يقطن بعيداً عن هذا المكان، سيقطن في « دلمون » عند مصبّ الأنهار .

ولمّا انتهى « أوت ناباشتم » من سرد قصّة الطوفان وضع يده برفقٍ على كتف حفيده وقال له :

ـ هذا هو سرّ خلودي يا « جلجامش » . فمن أنا حتى أجمع شمل الآلهة من جديد ليهبوك الخلود ؟ ولكنّني

سأمتحنك بأيّة حال لأرى هل أنت أهلٌ لذلك . فهل تقبل الامتحان ؟

قال « جلجامش » :

ـ أقبل كلّ أنواع الامتحان شريطة أن أنال الخلود .

وقال « اوت ناباشتم » :

ـ أمّا الامتحان فأن تظلّ ساهراً ستّة أيّام وسبع ليالٍ ، فهل تستطيع ذلك ؟

أجاب « جلجامش » :

ـ أستطيع .

ترك « اوت ناباشتم » « جلجامش » واختلى بزوجه وقال لها :

ـ أحببت أن امتحن اليوم ضيفنا. ولمّا كان الإنسان، لضعفه، ميّالاً إلى الكذب والخداع كما تعلمين ، لذلك اخبزي كلّ ليلة، وضعي رغيفاً طازجاً عند رأس «جلجامش» ، هذا إذا نام .

وكان سلطان النوم أقوى من « جلجامش » ، فنام في

الأيّام الستّة ، وتَلِفت على التوالي ، أو يبست ، الأرغفةُ
التي وُضعت عند رأسه . واستيقظ في اليوم السابع حين
مسَّ الرغيفَ السابع وكان ساخناً بعدُ ، فظنّ أنّ « اوت
ناباشتم » هو الذي مسّه فأيقظه . ولمّا رأى الأرغفة
التالفة حوله علم بالأمر ، وأقرّ بضعفه ، وأذعن لمصيره
المحتوم .

وقبل أن يبارح « جلجامش » المكان بصحبة
« اور شانابي» تقدّمت امرأة « اوت ناباشتم » من زوجها
وقالت له :

ـ هوذا « جلجامش » عائد إلى وطنه ، فماذا أنت
مانِحُه ؟

فرقّ قلب « اوت ناباشتم » وخاطب حفيده :

ـ ساكشف لك يا « جلجامش » عن شيء خطير ،
وسرٍّ من أسرار الآلهة ائتمنتني عليه . فثمّة في أعماق البحر
نبتةٌ كالوردة ذات أشواك تجرح اليد ، إذا تمكّنت من
الحصول عليها فهي قمينة بأن تعيد للإنسان شبابه

الضائع .

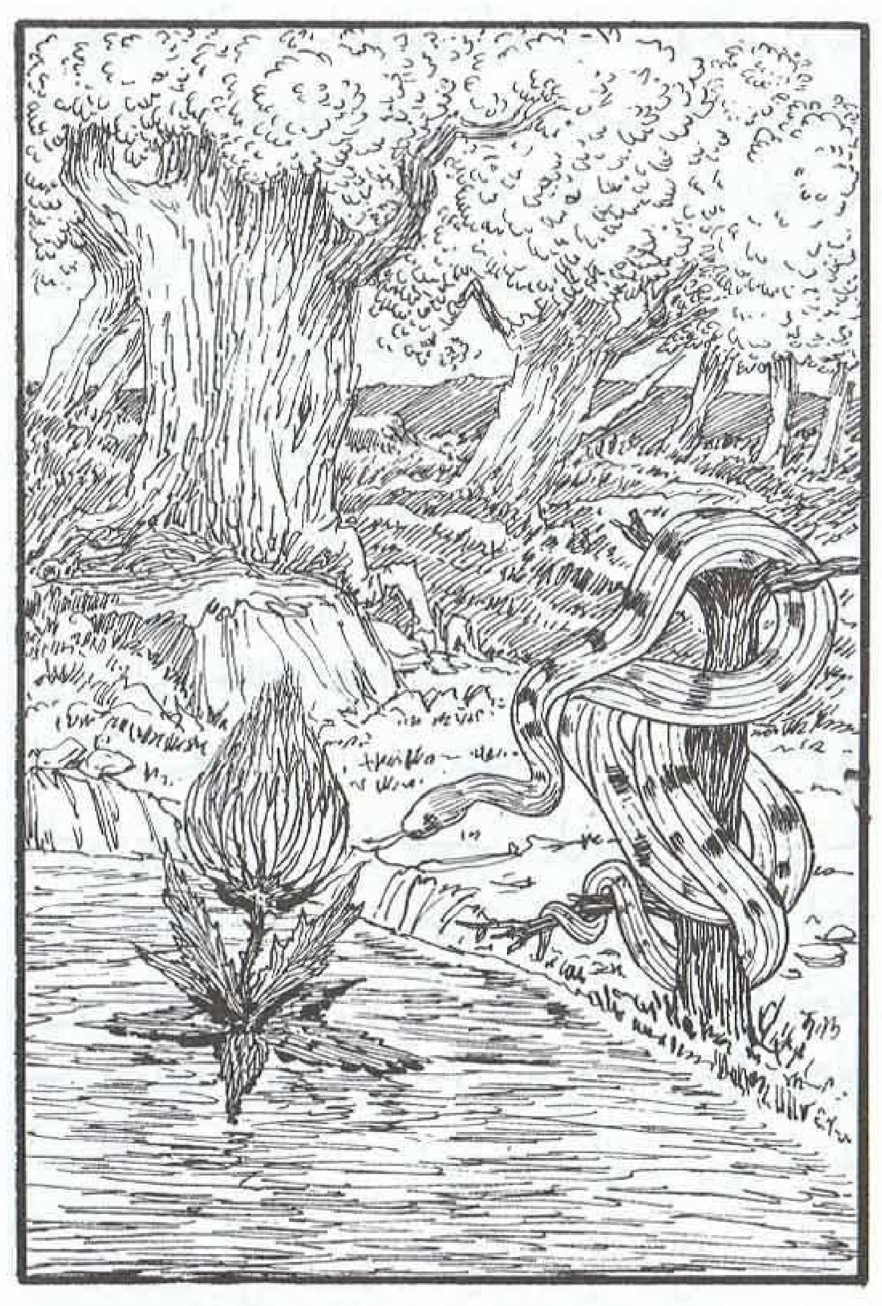
كان ذلك في أواخر الصيف ، ومياهُ البحر ساجية
صافية وزرقاء . فربط « جلجامش » في رجليه حجارة
ثقيلة ، وأمعن في الغوص حتى أدرك تلك النبتة العجيبة.
إستاصلها من جذورها ، وقطع الحبل الذي يربط الحجارة
في رجليه ، فساقه التيّار إلى الساحل . وهناك رفع نبتة
الحياة بيده عالياً في الهواء ، كأنّه يتحدّى الآلهة والسماء،
وقال :

ـ لقد أصبحت بعد اليوم خالد الشباب كواحد منكم،
فلن أرهبكم ولن أهاب الربّة « عشتار » ، ولا القدَر
« نمتار » . لا ، ولن يكون مصيري بعد اليوم كمصير
« أنكيدو » . وسوف أطلق عليها اسم « عودة الشباب إلى
الشيوخ » . ثم ساكل منها بدوري حين أشيخ ، فأستعيد
فتوّتي مدى الحياة .

وأخذ « جلجامش » طريق العودة إلى عاصمته
« أورخوي » وهو سعيد باكتشافه . فراح يضرب في

الفـيافي والقفار ، ويقطع السهول والأودية نهارات ولياليَ كثيرة ، حتى انتهى ذاتَ يوم ، قرب الظهـيرة ، إلى بحيرة على تخوم غابة . وكانت مياهها صافية رقراقة ، تبترد فيها ظلال الأشجار الحانية عليها . فذكّرته بمياه « الفرات » النمير ورغب في السباحة . فوضع نبتة الحياة على الضفّة ، وانتزع عنه جلد الأسد الذي كان ما يزال يلبسه ، وقفز إلى البحيرة يسبح فيها فرحاً نشوان ، حتى جدّد نشاطه. ولمّا خرج من المـاء ، واتّـجه صوب النبتة ، رأى أفعى رقطاء تسبقه إليها مجذوبة برائحتها الذكيّة . وكان جلدها اللمّـاع يبرق تحت أشعّـة الشمس . وإذا بها ، لعظيم دهشته ، تلتهم نبتة الحياة وتجدّد شبابها على الفور ، لأنّها ، ما إن تسلّلت في الدغل ، حتى خلّفت وراءها جلدها القديم ، وتألّقت ، كشريط البرق ، بجسم يتموّج بأزهى الألوان وأبهاها .

فاقتعد « جلجامش » ضفّـة البحيرة ، وأخلد طويلاً للصمت والتفكير ورأسه بين يديه . وهاله ، حين بدت منه التفافة إلى المياه تحته ، أن يرى وجهـه المنعكس على



الحيّة تسرق زهرة الحياة على جانب البحيرة

صفحتها و كأنّما اجتاحه الهَرَمُ بلحظات . وخفق فؤاده من الهلع ، وساورته الهموم من جديد ... إذن ، فبعد هذه الغضون في وجهه يأتي دور المشيب ، ثم المرض ، فالموت في آخر المطاف . بلى ! سيموت بدوره مثل صديقه « أنكيدو » ، ما من ذلك مهرب !

واستانف سيره الطويل صوب « أورخوي » مهيضَ الجناح ، كسيرَ القلب ، حتى أشرف عليها أخيراً ، وكان ذلك عند الأصيل ؛ فارتمى مثل أسد جريح على كثيب من الرمل ، وقبالتَه كان « الفرات » ، الذي تُغضّن صفحته الرماديّة نسماتُ المساء ، ينساب انسياب الأفعى . وفي رأس « جلجامش » كان ينساب سيلُ الذكريات تسوقه رياح الزمن المولّي : ذكريات قديمة وحديثة ، باسمة وعابسة ، حلوة ومرّة ، وكلّها كأنّها تقول له : كلُّ شيء يسير إلى الزوال يا « جلجامش » ما خلا الطبيعة ، وهذا النهر الخالد .

ورفع طرْفه إلى « أورخوي » التي كانت الشمس تؤذن بمفارقتها . فآلمه أن يفارق بدوره هذه المدينة التي شهدت

عبثه ومجونه ، حبّه وصداقته ، بطولاته ومغامراته وأمجاده العظيمة . آلمه أن يفارقها إلى الأبد ، فتمتم بحسرة: «بلى. سراب بسراب هي الحياة ، وعبث بعبث » .
كيف لا وجميع الصعاب التي عانى ، والأهوال التي ذلّل ، والانتصارات والأمجاد التي أحرز ، ذهبت هدراً وهباء منثوراً ، بسبب هفوة صغيرة ، لا بل بسبب حشرة حقيرة سلبته لذّة الحياة بسلبها نبتة الحياة ؟!

ثم ، ألم يكن صديقه « أنكيدو » يتمتّع مثله بالصحّة والقوّة والشباب ، فهمد بلحظة ، وانطفأت حياته إلى الأبد !؟

وعاد يتأمّل « الفرات » المنساب أمامه عميقاً صامتاً ورهيباً غدّاراً في سعيه الحثيث ، فذكّره بالأفعى التي اختطفت منه نبتة الحياة وهي لا تدري بفداحة جرمها وقيمة الغنيمة التي سلبت . وتساءل كمن انكشفت له الحقيقةُ بروعتها وأجلى معانيها :

ـ ولكن ما هو الإنسان ؟ ما قيمته ، إن كانت حشرة حقيرة ، أو دويبّة ، أو زحّافة كتلك الأفعى الرقطاء ،

تحظى أكثر منه بطول الحياة ؟ أليست هنالك حيوانات أخرى عديدة تعمّر أكثر من الإنسان، وأشجار ونباتات أبديّة الاخضرار ! إذن فالعبرةُ ليست بطول العمر وقصره ، إنّما هي بالأعمال التي وتترك بعد الموت ، وبالخدمات التي نقدّم للآخرين . لا ، ليست السعادة بالأمجاد التي نكسب ، ولا بالأموال التي نكدّس ، ولا بالرفاهية التي نؤمّن لأنفسنا وحدنا ، لا ، ولا هي بالقوّة والملك والجاه والسلطان؛ إنّ كلّ هذه فانية ، وفي الأرض باقية . إنّما قيمة الحياة بأن نملأها بجليل الأعمال . هذا هو معنى الخلود . الإنسان يعمل للخلود .

ونهض « جلجامش » فرحاً سعيداً باكتشافه الجديد . ولم تكن غبطته ، حين وصل إلى هذه النقطة من تفكيره ، باقلّ منها حين كان يرفع بيده ، وهو خارج من مياه البحر ، نبتةَ الحياة يتحدّى بها السماء والآلهة .

★

وحين دخل « جلجامش » « أورخوي » في تلك

العشيّة وولج قصره، كان يفكّر بشيء واحد، هو أن ينصرف إلى البنيان والعمران لا غير .

وهكذا أخذ يسنّ الشرائع والقوانين ، ويحكم بالعدل حتى وافته المنيّةُ وهو قرير العين، وسعيد بمصيره ككلّ الحكماء ...

الأسئلة

١ ـ ما هو الحلم الذي رآه الملك « انمركار »، وكيف تحقّق؟

٢ ـ لماذا كان النسر العظيم يحوّم فوق « اوروخوي »، وهل أقلق بتحليقه الملك « انمركار »؟

٣ ـ الى اي حد بلغ حب « شيرين » « لناهير » وكيف تفسّر هذا الحب؟

٤ ـ ماذا طلب الحكماء، والكهنة السبعة في صلاتهم إلى الإله « آنو »؟ وهل استجيبت طلباتهم؟ وكيف؟

٥ ـ صف لنا « انكيدو » ببضعة أسطر. وقل لماذا أخذ الرعب والعجب من الصيّاد « ياشير » حين رآه للمرّة الأولى.

٦ ـ ماذا رأى « جلجامش » في حلمه الأوّل والثاني؟ وكيف فسّرتها له أمّه « ننسون »؟

٧ ـ كيف كان وقع جو المدينة على « انكيدو » أول مرّة دخلها، وماذا كانت مشاعره حيال أبنيتها ومعابدها؟

٨ ـ ماذا كانت غاية « جلجامش » من وراء رحلته إلى غابة الأرز؟ وبماذا نصحه الكهنة والحكماء قبيل تلك الرحلة؟

٩ ـ كانت دهشة « جلجامش » و « انكيدو » عظيمة جداً حين أشرفا من قمّة الجبل على غابة الأرز. بيّن لنا ذلك.

١٠ ـ حين سعى المارد « خمبابا » نحو « جلجامش » وأخذ يلوّح له برأسه ويسمّر في وجهه عينه، عين الموت، كاد مليك « أوروخوي » يفقد توازنه من الرعب. ولكنّه ما عتّم أن تغلب على المارد « خمبابا » وقتله. كيف تم له النصر على الوحش الذي لا يقهر؟

١١ ـ ما هو الحلم الرهيب الذي رآه « انكيدو » وهو على فراش الموت؟

١٢ ـ ماذا فعل « جلجامش » بعد أن ووري صديقه « انكيدو » التراب؟

١٣ ـ كيف امتحن « اوت نابشتم » « جلجامش »، وكيف رسب « جلجامش » في الامتحان؟

١٤ ـ صف فرحة « جلجامش » حين حصل على نبتة الحياة، وصف خيبته حين سرقت الحيّة تلك النبتة.

١٥ ـ ماذا قرر « جلجامش » ان يفعل حين عاد إلى « أوروخوي » بعد أن أخفق في بحثه عن الخلود؟

محتوى الكتاب

الصفحة

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ حزيران (يونيو) ٢٠٠٥
على مطابع شمالي وشمالي
بيروت

٢٠٠٥ - ٦ / ٣٠١

توما الخوري

چلچامش

بطل ما بين النهرين

